الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عبد اللطيف الحرز

حسناء الهور

روايـة

حسناء الهور

رواية

عبد اللطيف الحرز

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-669-6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

الى غاليتي (إ. يعقوب)

التي تحملت فقري في الحياة

وجنوني بالكتابة

ما ينسب للمقدمة والخاتمة

{وقد قال سفيان الثوري: إن قلت لكم
إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني،
إنما هو المعنى}

نقله عبد القادر البغدادي
في مقدمة موسوعته خزانة الادب
ولب لباب لسان العرب.

النوم الأول:

حطبٌ اخضر

-1-

الظهيرة هنا هي كل شيء، فحتى ما بعد منتصف الليل لازال ثمة شـــعور بان الظهيرة باقية كأن الشمس لطمة على وجه الارض فيبقى الاثر طويلاً رغم قصر قامة الامنيات هنا.

ممكـــن لكونـــنا بلا ملابس ولا منازل. والظهيرة هنا مثل اغفاءة الزاهد.. تأتي وتتبدل من دون ان تشعر بها او تشعر بك، ولازلتُ حتى الان اتذكر مقولة الجدة ((برحية)):

حيـــنما يتكـــرر الوقت يتوقف الشعور ويتبلد الاحساس.. لكننا حيـــنما نـــتوقف لاتمتم الايام بنا... تحرك تتحرك الدنيا معك ويتجدد شباب الكون والكلمة.

يكثر في الليل ان نرى النيازك والشهب.. نيازك وشهب مسرعة كأنهـــا تـــتعجل حضور حفلة للنور والإضاءة.. هناك في مملكة يعرفها الجميع سوى الانسان.

كـــل ماحولك ماء. فنحن هنا امتداد لفردوس الماء الاول حيث الاضـــلاع الـــثلاث للنكبة وللذكريات وللحضارة وللتمني وللموت: الناصرية والعمارة والبصرة.

الماء بلا لون لكونه كل الالوان، ويحير المعنى عند الماء لكونه جمع المعاني فموطنه الارض وأمه السماء. لم تحدد الجغرافيا الماء يوما لكنه هو الـــذي يحـــددها ثم يحولها ويغيرها فتجد طباع الناس قد تغيرت: تقاليد

واديـــان، وازياء، وشعر وغناء وتبدلات في بكاء وضحك النساء.. آآه النساء كم هن عجيبات هن منحة السماء لكنهن طريات متقلبات كما الماء. الماء الذي صنع اول الحضارات: سومر، آشور، اكد، بابل. لكل حضارة طبع امرة حسناء ذات دلال وعناد مختلف.

الماء حولي اتأمله فأجده مثل طبع الانسان. مختلف ومتغير: محيط، بحـــر، نهر، شلال، ساقية، مياه مطر ومياه جوف. ظاهر جميل، وعميق مخـــيف. طاهـــر رقراق، ونجس مختلط. بخيل ومعطاء. الماء هو الصديق وهو العدو. وهو الميناء والملتقى واللقاء والمفترق، هو المحو وهو الكتابة، هو النسيان وهو الذاكرة.

الجـــو كان يبشر باقتراب موسم النار: الصيف. كان هناك نذير لتـــصبب جحيم السماء علينا هنا في هذه البقعة التي خقلها الرب بطينة الـــشيطان ثم نساها. رغم ان الشمس صفعتنا طيلة ايام رحلتنا صوب الارض الايـــرانية فـــرارا مـــن الحصار الاقتصادي على العراق وتخبط حكومة صدام حسين التي فقدت بوصلتها بالكامل بعد تفّجر حمى قمع انتفاضـــة شعبان عام 1991 بعد عملية ضم الكويت وارتكاب فضيحة واهانـــة للجيش العراقي، فقد بان سيف القومية العروبية انه سيفٌ من خشب ليس إلا. وان هيمنة النظرية الوحدوية هي جزء من ذهنية العار لاغير. هكذا وقفت الجيوش العربية ليس لمقاتلة اسرائيل كما كنا ننشد في المـــدراس الابتدائـــية، وإنما من أجل أن يتعارك بعضها ضد الآخر، وقفـــت الجـــيوش العربية طابوراً بالصف تحت إمرة جنرال أمريكي أهدته بعض شعوبنا العربية القحة بعض تراب أرضها، أرض لم تكن ستبقى لها لو لم تباركها أمريكا! صورة سوف يحاول العرب إعلان التوبة منها عام 2003 للأسباب معروفة قامت بتوضيحها شخابيط الدم في الشوارع.

الـــشمس لوحّت وجوهنا الوان مختلفه فأضحى كل منا يحمل اكثر من لون واحد، فهنا سوف تعيد اكتشاف بشرتك وان الجسد لـــيس صفحة واحدة وانما كتاب مختلف الاوراق ومصائد متخالفة للحظ.

الـــشريط الحـــدودي الذي تم تشييده في وسط الهور الايراني ايام الحـــرب مع العراق، هو عبارة عن ساتر ترابـــي يظهر ان عرضه كان اكثر من ستين مترا، لكن موج الايام قلصت من وجنة التراب واعادته صـــوب حـــياة الاجـــنة، بعـــدما كان ارضاً صلبة تقيم عليها الاقدام العسكرية الثقيلة مسيرة الموت الابدية.

رغم ضئالة مساحة الارض قالت لي ((وردة)): ان هذه هي المرة الاولى التي تشاهد فيها ارضاً بهذه المساحة الشاسعة!

وردة فـــتاة مـــن *العـــدان* وهم اقوام يعيشون في الماء في بيوت مـــصنوعة من القصب، بقو هكذا منذ آلاف من السنين، منذ ان دوّن السومريون اولى مغامرات العقل والروح في تربية التاريخ كرضيع ينمو بالواح الطين والكتابة المسمارية، فكان الماء هوية والقصب راية. ما لا يعـــرفه الكثيرون ان عشائر الاهوار حاولت عرقلة جيش صدام حسين عـــن اجتـــياح الكـــويت، رغم امكانياتها الصغيرة، فتكبدت الخسائر الفادحـــة في الاعراض والانفس والمياه. و لم تتدخل الكويت هنا بعد ان تحـــرر سوى ارسال بعض شاحنات مواد غذائية لهذه العوائل التي فرت الى همت بعد انعطف الجيش للانتقام. الامور تقرأ بانها شيعة وسنة. بقي الكـــثيرون من السياسيين في الخليج والكويت لايريدون الاعتراف بأي جميل لكون هولاء شيعة، مع ان السنة غالبيتهم انتفعوا بعمليات النهب و لم يحـــرمها شيوخهم بخلاف مراجع وفقهاء النجف الذين افتوا بحرمة استخدم اي شيء منهوب من الكويت.

وردة مثل غالبية المعدان مُحمّرة الوجنتين مخلوطة ببشرة مخملية بفعل التعرض الدائم للشمس، عيونها خضراء واسعة ان شاهدتها من بعيد فسيبدو لك ان العدسة مخلوطة من الاخضر والازرق، او الاخضر والعسلي البرّاق، مع رموش تلفتُ حتى الاعمى لطولها المفرط.

تُفضّل هذه الفتاة المخلوقة من القشطة، أن تلف شَعرها بالكوفية العراقية الرجالية، وهي قطعة قمش مكونة من اللونين الأبيض والأسود... الليل والنهار، إنها كوفية الزمن.

هذه الكوفية يرتديها الرجال في العراق والأردن وفلسطين، ولستُ أدري أي تاريخ مخفي يجتمع في هذه الكوفية.

بعض الأحيان بسبب الحر تتلثم وردة بهذه الكوفية فلا يبان سوى عينيها الخضراوين.. فتسمع الآهات من الرجال وتلحظ التعثر في النساء.. تبدو وردة كأنها قمر قمطّه النهار واحتظنه الليل.. يبدو وجه وردة كأنه الأمل ماشياً في تلك الظهيرة الموحشة.

بعض افراد المدن يعيبون على المعدان هذه الملامح ويقولون ان السبب هو الاحتلال الانكليزي القديم للعراق. لكن كثرة حاملي هذه الصفات يجعل هذا التعليل محظ حسد ليس الا، اذ لايعقل ان يكون الجيش الانكليزي نكح ثلاث ارباع هذه الطوائف البشرية. امر كهذا لو حدث لكانت ثورة العشرين انطلقت من الاهوار وليس من مدن الجنوب الأخرى.

لكوننا لم نتعود على المناخ الملوث، فقد كنتُ اول المنهارين امام قسوة الطبيعة وقلة الطعام، هكذا وجدت الزايرة ((ناظميه)) تتطبني بما لديها من معتقدات شعبية وبعض النباتات الصغيرة. فهؤلاء أول من لاحظ بأن الصحة عملية فكرية قبل أن تكون شأناً من شؤون الجسد،

لعلـــه لهذا سنبقى نشكو من قلة العافية أجيالاً عديدة لا زالت تنتظر في طابور الانبهار بتكنولوجيا التجربة.

بعـــد مدة يسيرة تعافيت لكن سبب عافيتي ليس تعويذات الزايرة ناظميه وانما بسبب حضور ابنتها الفاتنة وردة.

مـــصطلح زايره او زاير يعني الشخص الذي استطاع الذهاب لزيارة الاضرحة المقدسة في النجف وكربلاء وسامراء وبغداد، حيث يـــرقد هناك عم نبـــي الاسلام وربيبه الخليفة الرابع علي بن ابـــي طالـــب واولاده، خصوصا الحسين والعباس الذين سجلوا تراجيدة مميزة للايمان والتضحية لكن المعدان يحتفون بها من باب انها تسجيل للـــشجاعة خصوصا العباس الذي لايحلف ولايقسم به احد كذباً، ابداً خوفاً من نـــزول اللعنة حيث العباس بنظرهم ليس انساناً عابداً مـــن عائلة فقه وتفسير، وانما محارب له مكرمات فهو اقرب الى اله يـــوناني قديم يتضرع اليه الناس للحب والحرب. وقد يكون الحسين والعـــباس تعـــويض جيد لأسطورة جلجامش وانكيدو، فهولاء من المعدان ايضاً.

بالمـــاء نكبر وحينما نكبر تتغير ألوانا واخلاقنا ونخرج عن صمت المـــياه الى نطق الاخضرار فكأني اسمع صوت تلك الفتاة من بين امواج الحمـــى ولفيح الذكريات البعيدة.. صوت تنقلب به الضلوع الى ألسن للشكاية، وجروح الضمئ الى نطق جسدي للبداية.

قالت لي وردة:

– ((بالعباس احبك.. العباس أعليك انت هم اتحبني؟!))

وردة ازالـــت مـــرض حمـــى الجسد، لكنها تريد اشعال حمى الروح.

* * *

من بين الخيام هناك ثمة خيمة زرقاء كبيرة مصنوعة من البلاستك المتين. تم تعليق صور علماء الفقه بلحاياهم الطويلة وعماماتهم الكبيرة. السيد الكلبايكاني، الفقيه الذي خلف آية الله الخميني، وبجنبه الشيخ علي الاراكي، والشيخ فاضل اللنكراني وصورة كبيرة جدا للخميني والخامنئي، كتب تحت الاولى الامام الخميني قدس سره، والثاني السيد القائد الخامنائي حفظه الله.

ومن بين هولاء صورة محمد باقر الصدر، الفيلسوف الذي قتله صدام حسين في اول سنوات حكمه، وبقربه صورة مماثلة كتب تحتها: محمد باقر الحكيم زعيم المجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق حفظه الله ورعاه، صور تشبه ماهو موجود في مدن العراق، صورة تحول الصوت الى صمت والفرح الى احزان والصدق الى نفاق، هذه الصورة تشبه تلكم الصورة الكبيرة لصدام حسين الموجودة في المدرسة وفي المسجد والكنيسة اللذان في مناطق المدن المثقلة بالترقب، صورة مكررة بعدد الجروح، وبعدد المفقودين وبعدد الامانى الضائعة والاعراض المسفوحة، حيث يُكتب تحتها دائما ذات الكليشة: السيد القائد المجاهد رئيس الجمهورية العراقية صدام حسين حفظه الله وعاه. وقد اتسعت السطور حينما اضاف مفتي المملكة السعودية الشيخ ابن باز لقب عبدالله المؤمن الى صدام حسين، الامر الذي أخذ يهدد بان ينقسم اطار الصورة الى نصفين لصورة الرئيس ونصف لكتابة الالقاب والصفات.

في هذه الخيمة صناديق حُشرت فيها كتب بحجم الكف هي كتب تطبعها احزاب المعارضة الثلاث: حزب الدعوة والمجلس الاعلى ومنظمة العمل، حيث يقوم متطوعون بتوزيعها داخل العراق.

لفـــت نظري كتاب ضخم يحمل عنواناً مميزاً، تم طباعته بحروف ذهبـــية لامعـــة براقة: الاداب المعنوية للصلاة، تأليف آية الله العظمى مؤسس الجمهورية الاسلامية في ايران، روح الله الخميني.

اخذ ابن عمي جواد الكتاب الضخم مني وقال لي: هذه الخيمة اشبه بحوزة مصغرة، هي مدرسة لتعليم الدين وايضا نتسلى بالقراءة هنا.

ثم قـــدمني لشبان تشارف عشرينات عمرهم بالانقضاء وبعضهم تخطاها منذ زمن، وجميعهم ملتح لحية صغيرة كان منهم حسبما اتذكر: ابو صباح، رجل بدين قليلا اسمر اللون، الصلعة تزحف على جانبـــي رأسه.

ابو هدى شاب لا اقل في الثلاثين لحيته مقسومة بخط شيب ناعم، وهو يحمل خدين ضخمين مثيران للضحك.

ابـــو مريم اصغرهم سناً واصبحهم وجها، يتكلم بكبرياء، لايخلوا من عجرفة بعض الاحيان لكنه يكسرها بابتسامة ودودة، دائماً.

اجبرني ابن عمي جواد ان اكون طالباً نشيطاً وان استغل ساعات الفراغ هنا.

– اين مدرس الرياضيات.. التاريخ.. الجغرافيا؟!، سئلتُ ضحك جواد:

– الـــدين أهـــم.. شنو الفايدة من هذه العلوم يوم القيامة.. فهم الدين هو الاصل.. هو المهم.. افتهمت؟!

ســـكتُ و لم افهم. فابن عمي جواد كان يواضب هو الاخر مع هـــولاء الـــشباب على قراءة الكتب الموجودة وبين الحين والاخر يعلو صـــوتهم كـــأن معركة سوف تحدث بينهم، ينخفض الصوت ثم يأتي صـــراخهم، وهكـــذا الى ان يتعبوا فيتبادلون احاديثاً في الجنس وذكر النساء، عندها تتلطف ملامحهم.

بعـــض الاحيان ينضم الينا ((قوجانس)) المصاب بجنون ادواري، وبعـــد الانـــتهاء يسئل وردة بارتباك وخوف، وكأنه ممنوع من الكلام بفعل اداة تعذيب خفية، يتقطع صوته وبصعوبة تخرج من فمه الكلمات كأنما تفر من مصيدة او كمين:

- هل وجهي مخيف كريه؟!

- لماذا؟!، تسئل وردة

- لأني ارى الشباب ما ان يفتحوا هذه الكتب حتى تنغلق ملامحهم.

دائرة المذاكرة والمطالعة هذه سوف تتوسع شيئا فشيئا وان كانت تتعـــرض للتقلص ايضا، فكثيرا ما يضحر احد الشبان الجدد او الرجال الذين على اعتاب الكهولة، من القراءة ومناقشة ذات المواضيع. حاول بعـــض الشبان تشكيل فريق لكرة القدم لكن كيف وهمّت ارض فيها طول لكن بدوع عرض؟!

حلقة الدراسة تعرضت لمنشط قوي بمجيء ابو شمس، الذي يملك طائر الببغاء الملون والذي يعرف كلمتين:

الحمد الله، وابو شمس صديق الجن.

ابو شمس هاوي علوم غريبة: الجفر، قراءة الرمل، والطلاسم، وهو يعتقد انه يستطيع السيطرة على نساء الدنيا (نعم نساء الدنيا جميعا) فيما لـــو عـــرف كـــيف يفك لغز عملية الاستفادة من عظم الببغاء، تلك الطـــريقة الملغـــزة في الكـــتب القديمة. ولانه حاول عدة مرات وقتل عـــشرات البـــبغاوات، عرف ان كتب السحر مكتوبة بطريقة قديمة، والحـــوزة (قـــسيم الازهر)، اي مدرسة الدين الاسلامي فقهاً وفلسفة وادبـــاً وتاريخـــاً، تدرس كتب قديمة اذن لابد من الانخراط مع طلاب الحـــوزة والـــدين حتى يستطيع فهم كتب السحر ومن ثم قتل الببغاء والاستفادة من عظمه العجيب الاثر.

ابـــو شمـــس بقي له عام واحد ويكون عمره ثلاثون سنة بالتمام والكمـــال. هو هارب من العسكرية وبحياته لم يعمل بقي يعيش على مايكتبه من احراز للنساء. فكان طبيبا لكافة الامراض.

قـــبل به ابو صباح وابو مريم وابو هدى والاخرون، ان يتعلم في الخـــيمة الزرقاء بشرط ان لايكتب للنساء اي تعويذة، فهولاء المعدان ممكـــن ان تـــستغلهم ابشع الاستغلال لكن لا احد يعرف ردة فعلهم المجنونة فيما لو لم تنفع هذه التعاويذ.

قـــبل ابو شمس الشرط فهو لايبحث عن المال القليل، هو اما ان يحـــصل على كنـــز النبـــي سليمان والا فسوف يعيش ابد الدهر فقيراً والدنيا قسمة ونصيب.. والقناعة كنـــز لايفنى!

لكـــن ابو صباح وابو مريم وابو هدى سوف ينصدمان بشخصية جديدة ستأتي هو السيد ابو غيث، او السيد رياض كما سوف نعرف بعد ذلك.

شخـــصية غريبة لديه خمسة اطفال ذكران وابنتان احدهما ترضع والاخـــرى لتوها تتخطى المشي. مع نسيبه اخو زوجته احسان، شاب عمـــره ســـبع وعشرون سنه، فارع الطول كثير الكلام ودائم الكذب لكـــون حـــياته تافهة فلا تستحق ان تكون مادة للقصص فراح يرممها بحكاياة مخترعة فجة.

ابـــو غيث رجل قصير دائري الوجه يرتدي عوينات دقيقة ولديه بعـــض من اجزاء من كتاب محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن. وهو كتاب معروف بصعوبته لكون كاتبه رجل مهتم بالفلسفة التقليدية ولغتها الكلاسيكية، وكان الجميع يستغرب من قدرة ابو غيث هذا على هذا الفهم السهل والذي يقول ابو غيث عنه انه بسبب تقواه واتصاله بالائمة عليهم السلام.

لكن اهتمام افراد الخيمة الزرقاء سوف يقل شيئا فشيئا فلا نتكلم مع ابي غيث الا نادراً، لا ان ابا غيث لم يقبل ان يشرح كلمة واحدة من بحوث كتاب الميزان او يشارك احدا في النقاشات حول البحوث العقائدية التي كان يعاني الجميع من صعوبة فهمها، فبان كذب الرجل يوم بعد يوم، وانما ابتعدوا عنه لأمر آخر لم يؤخر ابو غيث علامات ظهوره. فهو وامرأته اشغلا اهل همّت بما يكتبانه من احراز وتعاويذ وبركات من ام غيث التي دخل العباس بن ابي طالب برأسها واصبحت مبروكة. ولا انسى كيف اصاب قوجانس الذهول وأخذ يسئل جواد، حيث كانت ناظمية وابنتها وردة والشيخ صالح جالسين:

– يعني كيف العباس دخل ابراس ام غيث.. ليش ترك قبره وضريحه في كربلاء وطارد ام غيث ودخل برأسها.

ضحك الجميع، لكن سؤال قوجانس لم يكتمل:

– من صدق اتكلم، العباس مو كان طويل يقول الشيخ القارئ الذي يقرأ مجلس تعزية على مقتل الامام الحسين، اشلون طويل وقدر ان يدخل ابراس ام غيث الي أبكد القوطية.. ابحجم علبة معجون طماطم وتكفي لنوم العباس فيها.. لاضحكون فهموني؟!

لكن ابو غيث الذي وجد من فليح عم وردة، الحليف المدافع والحامي العتيد والمستفيد، فلم يعد احد يستطيع التعرض لأبي غيث ومنعه من الشعوذة. ابو غيث اصتطدم بقوجانس الشبه مجنون الذي سوف يغار على صريفته بين الحين والاخر ويسرق مايجده امامه ويراه نفيساً، حسب نوبة الجنون او العقل، ما يجعل ام غيث وزوجها اضحوكة يشارك فيها حتى فليح من حيث يشعر او لايشعر.

هكـــذا كانت تسير الايام في همّت دين ناقص وشعوذة مبتورة وغربة كاملة.

* * *

كان الجو قائض ولفيح هواء مُسخّن بنيران اسهم جمعتها السماء مـــن مرمى الشمس.. كان الهواء اشبه بنفخة مخلوق شرير، وكأننا نقع بـــين فكي افعة عملاقة تتلمض بنا من حيث لا نراها.. آاه انه القلق.. القلق عدو قوي البأس، ينـــزل بالقلب كفأس يضربها حطّاب اعمى.

قلـــق مـــن قلة الطعام.. قلق من هذا المكان العاري عري المصيبة والفضيحة

اتـــت وردة وجلست بهدوء بقربـــي هكذا تظهر هذه الفتاة مثل قوس قزح

اي كلمة ياترى تستطيع حمل مشاعري؟!

مشاعر حب حقيقي مثل جرح عميق.. اعمق من البحر.. البحر يحمل السفن الكبيرة لكنه ضعيف لايستطيع ان يتحمل الشوق الى قُبلة من شفاه الحبيبة.. اللغة هي ايضاً اصابها الوهن والاهتزاز بيد ان العيون كانت حواكي.

ابعدت وردة خصلات شعرها عن جبهتها الماسية، ثم انحنى رأسها ومدت يدها تعتصر زندي، ثم تمتمت بلغة تشبه صوت الطيور:

– ابقى معي ولا تذهب الى هناك

ســـنكون ســـوية مثل نجمة وقمر.. مثل ضفاف نهر.. مثل عيون طفل تضحك كل شهر.. ابقى معي

كـــنت اتأمل صفحة الماء المتسخ، كأنه صفحة مزقتها شخبطات الحـــروب، متخـــيلا هذا المكان الذي شهد آلاف الصراخات الثكلى

للمجروحين والذين اصابتهم المنية، في حرب دامة ثمان سنوات عجاف بقي بعدها الشعب حقلا غير صالح للزراعه.

كنت احاول ان اقرب ذهن وردة مني، لكن كيف؟

وردة نـبت بـري.. جـزء من الطبيعة والحرية والحياة. اما انا فـشخص مـرتبط بذاكرة النسيان، ومكان تعريفه حروب ومؤامرات ومشاكل اقتصادية واجتماعية.

وردة كل ثقافتها هي صفحات الماء والبحث عن الاسماك، اما انا فقـد ادخلـت هذه الكتب سوسة المعرفة الى رأسي.. هل المعرفة ضد الحب الفطري؟!

مددت يدي الى وجهها، كانت تبكي بصمت.. احّمرت وجنتيها فبات وجهها والدموع مثل قمر تحتفل به النجوم

ارتعـشت شفتاي.. تسارعت ضربات قلبـي.. انحنيت مقترب مـن عسل الفم الكرزي، كنت كمن يهوي من تاريخه الى قاع السكر والنـشوة والهذيان.. لكن احساسي بألم الفراق الذي لابد ان يقترب منعني.. انتصب الخوف من المجهول مثل سد منيع اطول من سور الصين القديم

لكـن وبفـورة توتري وضعفي وحيرتي وترددي.. قذفت وردة بجذعها فوقي.. شعرتُ انها سوف تأكلني لفرط حماس الشهوة التي اخذ بركانها يعلن عن حرارته الخبيئه

في خـارج الكـوخ المـصنوع من القصب، اخذ الهواء يتبدل ونـسمات بـرودة تتسلل مثل اوتار عود شرقي تعزف عليها ملائكة الـتمني والـسلام.. اطفال عالم السماء البريئون من طينة الخير والشر، الآمنين من الحرمان والامتلاك والتمني... هكذا ونحن في خيمة نرجس الالتصاق اخذ المناخ بالتغير فتعرت السماء وتبدلت الفصول.

فجـــأة انهطـــل المطر، كانت السماء تعزف لحن الشوق والارض ترقص من فرط الحنين.

* * *

((وينج يمه ورده.. تعالي الخبز راح يحترق يُمّه))

هاهو صوتها المعتاد ينهمر كمعزوفة: اين انتِ ماما.. تعالي سوف يحترق الخبز..

هـــناك اهـــتمام بالخبـــز كأنه مبدء لابد ان تجعله النار يتماسك كعقيدة تختمر وليس فقط لقمة عيش سوف نتبرزها لاحقاً.

هـــو صوت يعادل تنبيه الديك بالنسبة لي فالسيدة ناظمية والدة ورده تـــنهض قبل اي ديك على وجه الارض، تطمأن على دجاجاتها التـــسع اولا ثم تـــنهض للعجن والخبز حيث تأجج نار التنور بواسطة مـــا جمعته من اخشاب وقصب وعيدان حشائش متيبسة.. تنقدح النار فينعكس الضوء على وجه المرأة الكبيرة، بغبطة مصحوبة بذلك الدفء الخفيض حيث لازال رذاذ من برد الفجر.

يبدء جسد ((قوجانس)) المحنون بالتقلب والتحرك، ينش بيديه الى اعلـــى والى اسفل قبل ان يستيقظ، سواء وجد بق وبعوض ام لا. يمط يديـــه ثم يرهش خصيته بقوة ويستيقظ بملامح لاتعرف هل هو غاضب او فرح او حزين او جائع... لايبالي بتحديق اي احد فيه ساعتئذ، يقفز رافعاً ثوبه ممد لعضوه التناسلي ويبول وهو مغمض اليعنين بفرح لذيذ.. ثم يفتح يعنيه ويصرخ:

طلع الصبح.. طلع الصبح

بينما وردة لازالت ترقد بسلام حالها حال دجاجات امها التسع، ينافس بياض وجهها لمعان نجمة الصبح

تستيقظ وردة بهدوء مزيلة خدر النوم بحركات بجعة يعانقها النعاس فتتمنع عنه بدلع الحسان:

– أووه يُمّه.. بعد وقت.. والله بعد وقت.. شنو ورانه الخاطر الله نعسانه بعدني

– ((لابنيتي.. الكسل موزين.. الكسل ايجيب الفقر.. والنوم الزايد يسوي صُفره بالوجه.. يلّه قومي وصيري ورده امفتحه.. الكسل يسوي البنيه بزونه عميه)).. اي قطة عمياء.

فتقوم وردة معينة امها لحظات وتخلق كل منهما موضعاً للنقاش والثرثرة النسائية والذي اغلبه قد كررته كل واحدة منهما مرات عديدة لكنهما يعيدانه بذات الحماس والصخب حتى!

– ((آه من بنات هل الوقت))

– ما يدلخن مزاجك بنات هذا الجيل: اشبيهن يُمّه.. ليش ماعجبينج بنات هل الوكت عود؟!

تضرب الزايره ناظمية يد على يد ثم ترفع يدها اليمنه الى حد وجهها وتمد سبابتها بقرب حاجبيها وتقول:

– ((اشبيهن.. اتكولين اشبيهن؟!... حايبات وعايبات لايشتهين شغل البيت ولا يعرفن ايصيدن عريس بخيت))

– حرام عليج ماما.. والله احنا حبابات بس الزمن غير شكل

– ((الكاع عوجه.. موهيج قصدج... خبزي عدل ابنيتي.. بس عاد يالله... خبزي عدل ولج))

تحدق الزايره ناظمية بعيدا في نار التنور ثم تلتفت والابتسامة اعطت لبشرتها رونق آخر.. تصوب نظرها خلف مستنقعات مياه الهور، كأنما تغمز لشخص ما هناك وتتنهد ثم تقول لأبنتها ورده التي انحنت كي تخرج قرص خبز كاد يحترق:

– ((آه يـــاورده لو تعرفين شنو جانت المريه بينه شنو من بني آدم!

والله والعـــباس ابـــو فاضـــل ابو راس الحار جنت انا وخالاتج والحبيـــبات من نمشي حتى قصب الهور يزّبد شهوة عليه وحنه نتمايل ولا امبرات العجم والسند، وكل رجال ايذب روحه بالف مصيبه على مود ايحصل نص غمزه))

تشرق وردة بضحكتها وحيائها:

– حرام عليكِ ماما.. نص غمزه بس؟!

– ((هـــاي اشـــبيج.. صـــدق بنات هل الوقت ثولات.. مو الـــرجال اذا اطيته كل شي من البداية راح تصيرين عنده رخيصه.. ابنـــيتي صيري سمجه (=سمكة) صعبه على مود اتصيرين عزيزه اكثر واكثـــر ومن يصديكِ الصياد ايطير بيج من الفرح طير.. اي ابنيتي سمعي وتعلمي.. انيّ ابنيه موبس حلوه.. اتخبلين، بس اشويه ايريدلج فهم))

حـــوار غـــريب وصـــادم، كيف نفسر تصرف الام هنا.. نحن الراضـــعون ذهنية الاثم من المدينة، كيف نستطيع تفهم هذا الدرس في طبـــيعة الانثى وحياتها من قبل أم لأبنتها التي لازالت في أول خطوات الـــبكارة والنضوج الجسدي؟!... من منا المأثوم نحن ام الزايرة ناظمية، الدين ام الطبيعة، الهور ام المدينة؟!

ولاينتهـــي هذا اللغط النسوي الا بحنحنة الشيخ صالح، الذي هو خـــال زوجة ناظمية الشهيد، هذه الحنحنة يعلن بواسطتها الشيخ صالح انـــتهاء فترت صلاة الصبح ونوافلها ولحظة تأمله الشمس وهي تتعرى علـــى ســـطح مـــياه الاهوار. بعدها يصرخ على قوجانس ان يذهب وينظف فمه فهو لم ينم الا وقد عتعته السكر والخمر كالعادة.

الشيخ صالح صارم بعض الشيء على عشاق الخمرة، لكن مع هذا المجنون الذي يحمل اسماً غريباً ((قوجانس)) الامر مختلف، فهو لم يقل له ولا مرة واحدة كلمة قاسية، فقط:

((روح نظف حلقك من الحزن))

وهي عبارة مثيرة: نظف فمك من الحزن!

كيف يغسل الانسان فمه من الحزن، هل يغني مثلا؟!..

لكن نصف المجنون قوجانس يغني دائما رغم بكائه الفجائي بعض الاحيان.

كنت اخشى من تعنيفات ابن عمي جواد الذي بقي كل مالدي من اقرباء ومعارف في هذا الشريط الحدودي، لكن ذات يوم اكتشفت ان جواد كان قد تضوى من حمى الفضول مثلي، فاذا به يصارح الشيخ صالح، بالامر.

لكن الشيخ الصالح امسك بلفائف سجارته وراح يدخن بصمت. لم نستطع لا انا ولا جواد الاندحار بسهولة هذه المرة. افرحني ان جواد حيث اصر على موقفه، فخدرت جسمي واطبقت علي عيني بقوة كي اوحي لهما اني اغط بالنوم فلا يطرداني.

قال له جواد تخبرني عن قضية قوجانس والا فسوف اسئل الزايرة ناظمية واسرق لسان قوجانس نفسه واجعله يحدثني.

- قـــوجانس مـــبروك.. يا ابني، قال الشيخ صالح بهدوء واضح مصطنع.

ولمـــا ابتسم ابن عمي جواد، تغيرت لهجة الشيخ صالح وتدخلت نبرات الحزم والجدية اكثر:

- انـــت لاتصدق.. تظن العقل وحده بركه.. لا ابني لا. الجنون بـــركة وخير ايضاً.. كل ماهو موجود هو خير والا لماذا خلقه الله؟!.

الشر ايواء العاجز.. اما الغني المطلق فاحشاه ان ينحدر الى صناعة الشر والقبيح.

كانت عيون جواد تفيض بعدم الاقتناع، رغم ان جواد كان يكرر خلف كل كلمة من كلمات الشيخ صالح بكلمة اليقين:

سبحان الله.. سبحان الله.. عمي صدقت.. صحيح

سحب الشيخ صالح صدره وعب الهواء عباً، ثم تنهد:

آه لو تعرف كيف تلعب الامور الصغيرة في تغيير الامور.. امور صغيرة تكتسب في رهان من رهانات الزمن قوة وضرورة اكبر من ان تحطيها الكلمات او ان توضحها العبارة.

آه ياجواد.. كانت ليلة مرعبة.. ليلة غاب فيها القمر وهطل المطر كأن القمر في تلك الليلة قد تشظى الى قطع جارحة.. غرقت الصرائف وحتى المظيف ومجلس الديوان واستقبال الضيوف، ذهب قصبه مع العاصفة، لكن صياح الرجال كان اعصارا مضاداً.. كان كل رجل يجهد ان لا تنطفيء شعلة النار التي بيده اليسرى، بينما المكوار، وهي عصا غليظة في رأسها يتم وضع قطعة من القير اليابس او قطعة حديد، في اليد اليمنى، امام اختطافات البرق بانت جثة رجل غريب تشوّه وجهه كان آل مرسوب يصيحون هذا الغريق لنا، وآل مطيوف يصرخون:

بل هو غريقنا.

وكاد الدم في تلك الليلة ان يعلو المياه ويختلط بزخات المطر، وحار العقلاء كيف يفضون هذه المشكلة ونعود ونتدارك بيوتنا والحيوانات التي لانعرف كم خسرنا منها بسبب العاصفة. كان الشيطان يصفق في الصدور مثل اجنحة خفافيش سوداء.

هدئت العاصفة.. توقف المطر.. لكن الشر يتقد في السواعد ويشد على الاعصاب، السهر جعل العيون مُصفّرة، والعاصفة تركت

ملابسنا اسمال تكشف تفاصيل اعضائنا اكثر من ان تسترها، هنا وبينما تعبـــنا من تمدئت الامور او تأجيلها لا اقل، ظهر قوجانس وهو يحمل اربعة دجاجات انقذهن من الغرق، وصرخ:

– عمي عندي الحل

قلتُ له: ابني ابتعد من هنا الان.

لكن قوجانس احرن مثل حمار ضخم:

– والله عندي الحل عمي بس اسمعني

كـــنت اريد التخلص منه في تلك اللحظة، لكن قوجانس طرح حله السحري الذي لايخطر على قلب احد:

– عمـــي ارمو الرجل في الماء فإن رسب فهو لبني مرسوب وان طفا فهو لبني مطيوف.

وهـــنا لم اســـتطع ان امـــضي بتمثيل اني نائم فنطلقت مني قهقة اختلط بضحك الجميع مرة واحدة، بل لقد بيكنا من شدة الضحك.

هـــذا هو قوجانس.. الم اقل لك ان الجنون خير وبركة وليس العقـــل فقـــط. قـــال ذلك الشيخ صالح وهو يرمم بقايا ضحكته الكسيرة.

لقـــد تمـــدد ابن عمي جواد من الضحك، لكن وبعد ان هدئت انفاسه عاد من جديد يكرر تسائله وحيرته بقوجانس.

وقـــبل ان ينطق الشيخ صالح بشيء، جائنا صوت قوجانس بطيئاً مـــثل مـــوج مسائي. كان صوتاً رخيماً لايشبه صوته الاعتيادي الذي ألف الجميع جنونه بالمرة. لم ننتبه لحضور قوجانس ولا ندري كم سمع مـــن الكـــلام. لكنه كان اشبه بفوران نبع بكر، كان واضحاً ان نوبة الهـــذيان قـــد داهمته بقوة هذه المرة فأخذ يتحدث وبقيت انصت اليه بمذول الطفل امام صندوق العجائب:

– قيل لي منذ البداية انهم يمثلون جزءاً من مذهب غريب وطائفة غـير معروفة. مذهب روحي يعتبر امتداد لتقليد اسطوري عريق يقول بوجود مخلص عام للبشر من الخطئية والشر، من شهوة التملك وحسرة الحـرمان. وهـو مذهب سمعت ان له تفرعات عديدة حتى في الادب والسياسة، بل وحتى في الشعر ايضاً.

قـال جواد لقوجانس يعني انك كنت مرتبط بجماعة سياسية او حركة ماسونية جابتلك مصيبة؟!

لم يكن قوجانس يسمع كما يبدو فاكمل:

– لم يكن المنقذ او المخلص وجهاً نورانياً يشبه ما في عقولنا عن الحسين والعباس وعلي ابن ابـي طالب. كان المنقذ يحمل وجهاً داكناً يحمـل عروق الفرات الطري والمتشعب. صدمني ذلك الوجه الذي لم ارى بمثل سواده سابقاً، وجه ليلي يقود شباناً محمورين الى غرف معتمة بعـدما يحـدثهم بكـلام غريب عن الوجه الاخر للشيطان والكنـز المختفي الذي هو عبارة عن قلب الله غير الجريح بسقطة إظهار الكون والمخلـوقات. وفي الـصباح يقذف بهم العوز الى مصاطب حديدة في مقهـى صـغير يقع في زاوية الشارع المسمى 14 رمضان قرب مدينة المأمون.

صفن قواجانس وطالت صفنته وقبل ان تمتد يد الشيخ صالح اليه لتـسعفه مـثل كل مرة حيث يخرج الشيخ صالح شيئاً من جيبه يربطه بعـضد قـوجانس، وبينما جواد يلوح للشيخ صالح ان يترك قوجانس لـشأنه، وجدنا عيون قوجانس تعود من جزيرة سندباد الهموم وبساط ريح التقصي، فاكمل بعد ان نهش شعر رأسه بعنف:

– تعـرفتُ علـى هذه الحلقة العجيبة في ذات اليوم الذي كبلني حب رؤية المدينة، فضجرت من الهور واخذت بغداد تزورني كل يوم،

تركت الهور على رغم ممانعة الجميع وتحذيرهم لي من الالتحاق بجبهات صـــدام حـــسين ضد ايران او ضد الاكراد او تكون المصيبة اكثر بان يقودوني جندياً ضد الاهوار.

لم اكتـــرث لاحـــد، كنت شبه مُنَوّم بنداء مغناطيسي تبعثه جنية مسحورة تنهض بين قبور اكد وسومر وآشور.

بجهد بالغ، وبملع من كل شيء وصلت الى بغداد. كان كل شيء يثير فيّ دهشة الاطفال ورعدة الموت.. اليابسة، ملابس الناس، القطار، والسيارات والابنية التي ليس فيها قصب.

حطيت رحالي قبال تلك القهوة فرأف بـــي كبير هولاء الاغراب والـــذي كان اشد مجموعته معرفة بوكيل المنقذ. وكنت اعجب لقدرة هـــذا الوكيل على ابعاد يوم الالتحاق بالجيش وتقريب ايام الاجازات وتمديدها، لجنود الجبهات التي كانت تنور لايشبع من الحطب البشري. كـــان وكيل المنقذ عبقرياً في استدامة الجهد الضائع، كان يختلق النساء والحكـــيات لـــشبان جرحى ومعاقين وبقايا بشرية لن يستطيع ذويهم التعـــرف علـــيهم ابدا، او لايصدقون رغم وجود قلادات تحمل قطعة معدنية صغيرة يقال ان فيها اسمائهم.

كـــان وكيل المنقذ بارعاً في تحويل كل شيء الى طقس مريح.. الجلـــوس طقـــس.. الوقـــوف طقس.. الضحك بلا سبب طقس هو الاخر.. الجوع طقس رغم كل شيء.

قلت له ذات يوم:

الوحدة طقس؟!

فقال: بل هي سيدة الطقوس.

قلت له: ما تقول في الغربة؟!

... سكت

استيقـــضت ذات صـــباح فـــوجدت رأسي صندوق يتشقق من التفكير، التفكير بماذا؟!.. لست ادري. أحسست ان هذه اول مرة فيها اشعر بثقل كوني مخلوق له طاقة العقل.. طاقة العصيان.

بحثت عن الشاي، كان اتباع المنقذ يضعون فيه مادة بيضاء يقولن انهـــا تجـــسيد من تجسدات الضمير. لم اكن احب طعمها لكني كنت اتناولها اذ هي في العادة تسكن الالم، لكن اليوم تحول الشاي في رأسي الى قنـــبلة. بات الشاي خارجي ولي داخل معدتي.. كل شيء داكن.. الارض والحيطان والسماء. صرختُ:

اعطوني حبة اسبرين.

وجدت يدي وكيل المنقذ تمتدان الى صدغي وراح يدلكهما بقوة كانمـــا رأســـي بين يديه ثمرة يعتصرها كي تتحول الى شراب سحري لمخلـــوق خرافي... مخلوق آخر يعيش داخلي اسمه أنا لكني متغافل عن التطلع فيه خوفاً على ضياع مملكة الاحساس.

قال لي المنقذ: انت وعاء غير جيد، الالهة تبحث عن اناء جيد كي تـــصب فـــيه حكمتها. انت لاتشرب الخمرة لذا لن تفهم الامور الا بالعقل.

هكـــذا تعلمت الشرب، لكن بقيت لا اطيقه الا بمقدار محدود، كـــأن الخمر نار وانا ستارة تخشى ان تحترق.. لكن لكم كان احتراقي عظيم.. لم اكن ادري بان الريح قاسية الى هذا الحد ابدا!!

انفعـــل جواد بوجه قوجانس وصرخ: اني لا افهم شيء.. بربك اشـــرح ما تقول. فرد علي الشيخ صالح: انت اردته ان يتكلم وعليك انت ان تفهم.

كـــان صوت قوجانس يغيب ويتصل كأنما يركض بعينيه صوب مخلوقات عالم آخر يبتعد ويقترب، يأتي ويضيع:

لازلت اتذكر ذلك اليوم من الخامس عشر من شهر شعبان، كان افـــراد حلقة وكيل المنقذ السبعة فرحين على غير العادة كطيور ترفرف لأمهـــا كي تغذيها دودة الحياة. وعلى غير العادة كنت اكثرهم شرباً للخمرة ذلك اليوم، وبسبب سكرتي الشديدة لم استطع المشي بينما هم كانوا يتراكضون وخلفهم سياط من كيبلات ووسائل كهربائية اخرى وعصي غليظة بيد عسكريين تتلمض اعينهم من الحقد، تمرول خلفهم، حـــتى اذا مـــا وصلوا الى بستان احمد آغا الذي تفصله عن المنطقة التي نـــسكنها اربعة كيلوات، مطرت الدنيا عليهم رصاصاً فشربت الارض دمهم كطفل رضيع جاع شهور مديدة.

امـــا انا فكان على بشرتي ان تنقلب الى سوداء كاحلة من شدة الـــضرب والتعذيب في مديرية الامن العامة، لكوني لم التحق بالجيش، ولكـــوني تسترت على مزوّر مستندات واجازات للجنود، كان وكيل المـــنقذ عـــبارة عن سوداني ينشر عقيدة خرفة او خارقة تجعلك ترضى باكمـــال سرد شخبطة الوجود باسم يوم موعود يعوض فيه المنقذ ماتم مـــن ظلـــم بعدل اكثر وفرة من الخير والامان والحرية. في بلداننا صنع قناعة بالامل نوع من السحر قد نسميه النبوة.

بعـــد ســـنتين اطلقوا صراحي بعد ان تأكدوا اني جننت بالكامل وفقـــدت ذاكرتي بالمرة. لم استطع النطق الا بعد شهور. تصدق عليّ بعض المارة ببعض المال بعد ان يأسوا من محاولة انطاقي من انا ومن هم اهلـــي. وجدت نفسي اشتري خمراً يكفي لسبعة اشخاص، وجلست امام المقهى ذاته الذي طردني وحاول ان يتلمص من ان يكون يعرفني او شاهدني ذات يوم.. اخذت اشرب واشرب فبدت السماء كألها مخلوقة مـــن آلاف الاجساد المزرقة من التعذيب.. نعم شربت لوحدي. بعدها تعـــرف علـــي انـــاس آخرون سود البشرة اقسموا لي بالهم ليسوا من

السودان وانهم عراقيون هاجروا الى بغداد من اجل لقمة العيش.. ذات مساء تعرفت على فحبة سوداء البشرة كان الجميع يبتعد عنها وهي تتسول ان يفتح احد ساقيها او يدخل قضيبه في عجيزتها الممتلئة مقابل بعض الدنانير، لكن الجميع اشاح وجهه عنها بما فيهم اصدقائي الجدد سود البشرة!

انقضيت عليها امام الجميع وفتحت ساقيها واخذت اضاجعها متمددة مرة وقائم وهي معلقة بي من رقبتي، مرة اخرى.. ثم اخذت تصيح وهي مدهوشة مني.. فجأة انحلت عقدة لساني، فصرخت: خره بربك ايها المنقذ، بعدها سال حليبي متدفقاً بين احشائها السوداء، ثم تعالت اصوات اصدقائي السود وعيونهم محمرة من الضحك وتعتعة الخمر.

في الصباح وجدت بقربي امرأة منهوكة من النكاح والمضاجعة، تبسمت وهي تستيقظ: عليك ان تدفع ثمن عمر كامل من المضاجعة وليس ليلة واحدة. تعجبت من نفسي كيف اني رأيتها مسكينة في الليل وقاتلة في الصباح، سائلة نفسي: هل الفاصل بين القبيح والجميل هو الزمن؟!

لا اعرف كيف ولا باي سبب وجدت نفسي اقرف من كل شيء واولها نفسي، باتت الخمرة راحتي والتسكع الليلي هوايتي.. لا احد يتعرض لي بعدما عرف الجميع باني: مخبل، مجنون.

لكن النساء يتحاشينني حتى التي تراني اول مرة، لا ترأف علي كباقي المجانين. هي تشتم رائحة فحل متوثب للقاح في اية لحظة.

كنت كل ليلة اسكر واجد حلقة المنقذ تبعث من جديد يحكون معي فاسمعهم، اتحدث الهيم فلا يسمعون، اضرب على رأسي، اشتمهم، لكنهم يضحكون. اصيح.. اصرخ..

نمت على الرصيف بقرب المقهى ذاته فاذا بصوت المنقذ يقول لي:

واحدة من اثنتين اما ان تزوّر روحك فلا يعرفها جسدك، واما ان تكتب تعاليمي وتدون الكتاب المقدس للحلقة الفانية.

كـــنا نـــصت وأنفاسنا مكبوتة وكأننا ننتظر وحياً او صوت انفجار.

فجأة انهال قوجانس على نفسه بالضرب والكدمات، فقفزت انا مـــن مضجعي وقام جواد والشيخ صالح لتهدئته، فصرخ الشيخ صالح بجواد: الم اقل لك اترك هذا الامر.

اشـــتط بـــــي الغضب فتركت المجلس وخرجت لا الوي على شيء، تركت لقدمي ان تسيران بـــي فوق ارض همت التي كانت تشبه عنق تنين ينام بنصف اغماضة، بينما الشمس تغيب فبدى القصب مثل رؤوس حطـــب انتهـــى منه الحريق للتو. بينما قوجانس اضاف حريقاً جديدا في مدينةالقلب.

هـــناك بين حلقة من رجال وشبان وبعض الاطفال محتلقين حول ضوء خافت منبعث من فيلة قنينة زجاجية ملئة بالنفط وسدت فوهتها بـــالعجين، وجدته كالعادة يضحك ويكركر عالياً باحاديث متشعبة. عباس سجين سياسي، محبوب من قبل اناس كثر. فهو كثير الحكايات عن ايام اعتقاله، لطيف العشرة ويتحاشى الاصتدام مع ايّ احد. بسبب هروب عالم الذرة الدكتور حسين الشهرستاني من سجن ابـــي غريب، ثم قيامه بعد ذلك بعرض ملف حقوق الانسان في العراق على المنظمات العالمـــية، ثم انتفاضة الشعب العراقي في شعبان، عزمة المنظمات الدولية علـــى تفتـــيش معتقلات طاغية العرب فقرر السيد ((فان دي شول)) زيارة العراق وتفتيش السجون فسارع صدام حسين الى اطلاق سراح السجناء بقرار حمل رقم 241 بتاريخ 21\7\1991

ورغـــم ان عـــباس جاء من مدينة الفاو التي تقع قرب الاراضي الايـــرانية، وهـــو لايعرف شيئا عن الزراعة فابوه موظف وهو طالب ملاحة اكملها بسباحة غير موفقة في شط السياسة والدين، الا انه يتودد لعـــساف، المعـــيدي الذي لم يشاهد ارضاً يابسة غير هَمت قط. ربما لكونهما متناسبان في الطول والضخامة فقط.. ربما.

قـــال عباس انه كان يعشق الوصول الى مدن الغرب المضيئة، لقد مللـــتُ الفقر الذي توارثه ابـــي عن اجداده، فقد غدى صفة جوهرية وأحد خلايا الدم كالدين الذي نتوارثه تماماً. ما ان انهيت الثانوية حتى قدمت اوراقي الى البحرية قائلا لنفسي لابد اني سوف ارى تلك المدن السحرية حينما ترسو سفينتنا يوما هناك. ضارباً عرض الحائط الحاحات امي بان اتزوج وتى احفادها. لكني كنت منذ البداية غير موفق سقطت عـــن الـــسفينة في اول يـــوم اوكلت لي مع مجموعة، مهمة التنظيف، وكدت اموت غرقاً. نجوت لكن الهلع بقي بداخلي ولم يزول حتى تنعم جسدي بحفلات التعذيب داخل سجن ابـــي غريب. هناك كنت اغرق بدمـــي ووســـاختي وسيلانات الجراحات والبثور المنشورة على بقعة جسدي. وبينما راح زملاء العذاب يقضون اوقاتهم في العبادة ودراسة الفقـــه كنت اتسلى بالتطوع لغسل ملابس السجناء الرثة القليلة مزيلا عنها ماء شهواتهم الجرحية والمهدورة.

يضحك عباس ثم يكمل:

هـــل تـــصدقون مثلا ان بعض السجناء كان حينما تصيبه الجنابه ويبلل الارض التي تحته يقوم بتخطيط المكان فهو بات مكاناً نجساً يجب اجتـــنابه بنظـــر المتديـــنين بعد فترة باتت هناك اكثر من مخطوطة على الارض وفي يـــوم مـــن الايـــام اكتشف احد زبانية السجن ان هنالك رســـوماً غـــريبة على الارض فخضع الجميع الى عذاب مضاعف كي

نعترف بان هناك خطة هروب من السجن ولم يقتنع الحراس واجهزة الامن الا بعد فترة طويلة من التعذيب والانتظار والتحسب. ودس جواسيس بيننا.

لم اكن سياسياً يوماً وحتى الان ليست لي رغبة في التعمق بالدين. لكن القدر سهم طائش فرمت بي صدفة سوداء في قعر السجن عشر سنوات كاملة. الفاو مدينة حدودية وكنا نخاف الحرب فسواء انتصرت ايران او العراق فنحن اول الخاسرين. لكن السيد الخميني فقيه معروف بينما صدام حسين وحزبه حثالات غير معروفة، من الطبيعي اذن مساندة الطرف الاول. هكذا ببساطة فهم البعض منا الامر. جاء شخص من حزب الدعوة الاسلامية وقال لنا بضرورة جمع المال لشراء بعض البنادق كي نضرب جيش صدام من الخلف بينما جيش السيد الخميني سوف يضربه من الامام هكذا يكون النصر محسوماً. لم نكن ندقق بالامر والذي كان يغذينا بهذه الافكر بدوره مرتبط بشيخ غريب الاطوار اسمه كاظم معن. الذي كان يشبه شخصية فهد مؤسس الحزب الشيوعي في العراق. الاول ينظم حركة حزب الدعوة الاسلامية من اجل نصرة الدين، والثاني ينظم حركة الماركسية لهدم الدين. لم يدقق احد ماذا كان يقول هولاء حقاً. ولعلهم انفسهم لم يتركوا لانفسهم وقتاً للتفكير، فالامر كان منحصراً بضرورة التغيير، الفلاسفة كانوا يهتمون بتفسير العالم وليس تغيره، هكذا كان التفكير والتأمل عدواً مشتركاً للاسلاميين والشيوعيين.

تعالت الاصوات وانتصب ابو صباح وابو هدى وابو مريم، مستنكرين هذا الكلام. سارع عباس الى تقديم الاعتذار قائلا انه جزء من الحكاية لاغير. بعد أن راضاهم عاد الى سرد حكايته:

نعم صدقوا او لاتصدقوا، هكذا كانوا يفكرون. مصيبتي ان اصدقائي الذين بدءت اعمارهم تتخطى العشرين بالنسبة لنصفهم

والنـــصف الاخـــر لازالوا مراهقين، جمعوا بحماس مبلغ زهيد من المال لمواجهة جيش كان يحسب انه رابع جيوش العالم. من الفجر اقتحمت البـــيوت وجرجرنا العسكر بفضاضة وقسوة بينما كان بعض منا لازال يتبول في فراشه.

كانـــت العـــيون مربوطة والقلوب تكاد تفلت من بين الضلوع، سارت السيارات بنا وبين الحين والاخر كان يتكور بعضنا على بعض فنعـــرف ان السيارة تأخذ طرقا غير سالكة، فشعرنا بالهلع من فكرة ان يكـــون مصيرنا الموت الجماعي في حفرة واحدة كما هي طريقة حزب البعث الاثيرة.

حيـــنما وصلنا الى حيث لانعرف، صعد احد العسكريين واخذ يدفعـــنا ببـــسطاله الثقيل فتتناوشنا الهراوات والشتائم ونباح الكلاب المسعورة. تم رفع العصابات عنا فداهمنا ضوء خافت في غرفة مستطيلة اشبه بنفق، كانت رطبة وتفوح منها رائحة نتنه. بعدها امرونا ان نخلع جميع ملابسنا حتى اللباس الداخلي، تراعشت الايدي حينما وصلنا الى كـــشف عوراتنا، تلك كانت بداية فقدان الذات والدخول الى مملكة التشوه.

ربت العقيد مازن التكريتي على بعض ارداف بعضنا الذين يملكون مؤخـــرات كـــبيرة بيضاء، فتحت شهية العقيد رغم الشعيرات النافرة منها. هكذا تم فرز خمسة منا بعنوان كونهم المدللون.

– لا حـــول ولاقـــوة الا بالله، قالها الشيخ صالح وهو يهز برأسه ويضرب على فخذه، ثم رفع رأسه وخاطب عباس:

– اكمـــل ابـــني.. اكمل، خلي الناس تسمع وتعرف، وان كان الـــبعض لن يفهم حتى لو ركب البعثيون اخته وامه امام عينيه، سوف يبقى يصفق للقومية:

سعل عباس سعلة خفيفة وراح يكمل وهو ينظر الى باب الصريفة كأنه يشاهد الاحداث على شاشة يراها هو فقط:

في الليلة الاولى نسينا الطعام، كان الموت هو الفكرة الوحيدة، بائس هو العقل امام قضية الموت، يتعطل كلياً ويشتغل الخيال بجموح. وقبل الفجر كانوا قد وزعونا على غرف افرادية عرضها متر وطولها متران، واخذوا يحققون معنا ويقولن لكل واحد منا ان الباقين قد اعترفوا جميعا ولم يبقى الا هو، وعليه ان يعترف هو الاخر. كان يسمون العصي الكهربائية زنبورة، على نور تلك التيارات الكهربائية كان يقرأ الرفاق تعاليم مشيل عفلق حول الامة العربية الواحدة، فالعصي محابر والاجساد دفاتر.

وكم شعرنا بان الانسان يملك الكثير من الاعضاء، اعضاء كثيرة جدا، يكفي ان منها ان الاضافر عشرة يتم نزعها واحدا واحدا، ودبر وخصيتين يتلقيان الصعقات الكهربائية التي لاتمل فحصلت ادبارنا على كمية من الفلوطات الكهربائية مايكفي لأناراة البصرة والعمارة ثمان سنوات كاملة، في زمن صدام حسين السجين هو اكثر المواطنين تلقيا للكهرباء!

وهنا لم نستطع الا ان نضحك، ضحكنا وغرغرت العيون بالدموع، فكان شعورا غريبا ان يضحك العقل ويبكي القلب في آن واحد!

وحينما شاهد عباس الوجوه مغبرة من النعاس، قال بصوت عال حسناً غدا نكمل الحكاية. فتمددت الرقاب وتمطت الايدي متثائبة، عندها تبعثر الجميع بينما استلقى آخرون في اماكنهم وسرعان ما على الشخير.

قلت لنفسي هذه قصة يفهم راسها من طيزها ليست مثل قصة قوجانس المجنون. لكن مع ذلك كان القلب عصفور يحدق بكلمات

قـــوجانس الغامـــضة ولايستطيب حكاية عباس، كأن الحكاية الاولى شـــجرة خضراء والثانية شجرة يابسة او مجرد سراب اغصنة. في تلك الليلة قلت لنفسي بعدما خاصمني النوم:

هـــل الجـــنون مثير من مثيرات اللذة، ولماذا يخدشنا الغموض هل ذلك نوع من الحنين لرحم الام الاولى، الطبيعة؟!

* * *

ايقـــضني صـــياحها كي انهظ، فتحت عيني بصعوبة امام توهج الشمس، كانت خصلات شعرها تتدغدغ انفي وحنكي.

- شنو قصتك، نايم للظهر مثل الدب

- لماذا لاتقولين مثل عريس؟!

شـــهقت واضعةً يديها العاجيتين، لطمتني بقوة، ثم هجمت عليّ تعضني

احتظنتها ورحت اعب جسدها قبلات متواصلة.

تملـــصت مثل سمكة ونهضت وضعت يديها على خصرها ومطت بشفتيها فبدت مثل البلبل:

- شنو تفتهم من العرس والعريس بله؟!

- اثنان دائما يعيشان سوية

اخذت وردة تغالب ابتسامة

- افتقدتك هذا الصباح، لم اشتهي ان اتناول فطوري بدونك

سئل عنك الشيخ صالح، وامي وحتى قوجانس.

- قوجانس هو السبب

- لماذا هو السبب ماذا فعل لك هذا المسكين؟!!

- كلامه يوم امس.. كلام غريب، ومطلسم

– لا عليك منه هو مجنون ومقطوع من شجرة.. مسكين الله بعونه.

– مقطوع من شجرة.. كيف وجميع المعدان عشائر متوارثة؟!

– لا اعرف.. حينما كنت صغيرة كنا نسميه ابن الغريب، لكن الان نسميه باسمه حيث الشيخ صالح يغضب من هذه التسمية.

– غريب!!

– اذا اردت ان تمسيح جنون قوجانس، ناده بالغريب ساعتئذ سوف ينقض عليك مثل الوحش.

– واين ذهب ابوه؟!

– لا اتذكر ان له اباً

– انتِ تزيدين حيرتي، وتتعبيني بفضول كبير... اصدقيني الامر؟!

– هل كذبت عليك يوما بشيء، لماذا انت مهتم بقوجانس هكذا، اترك هذه الثرثرة وتعال نلعب بالماء.. هيا قم قبل ان ترتفع الشمس وتصبح حارقة مثل التنور.

تناولت طعامي بعجل، ونهضت مثل المغمي عليه، سكراناً خلف جدائل وردة. في الماء قالت لي:

مالك سارح، هل لازلت تفكر بقوجانس؟!

احتظنتها:

– لا.. ولكن انظري الى هناك

– اين..؟!

– انظري توجد فاخته

صرخت:

– ياربي هل يعقل ان توجد فاخته في همّت.

– دعيني اقترب منها

- سوف تطير
- اريد ان اشاهد عينيها

قرصتني بقوة:

- آخ.. هل تغارين من الفاخته.. هي مجرد طير ياشقيه
- انا اغار من اي شيء يثير انتباهك عني.

ومنذ ذلك اليوم بتنا نتسلل الى وكر الفاخته ونطعمها بعض قطع الخبز المتبقية. وكنا نحرص عليها كسر مشترك.

بقينا داخل الماء، كنت اغطي رأسي بقطع ملابسي ابللها واعصرها ثم اضعها على راسي غير مبالٍ بصراخ واعتراضات وردة باني سوف امرض. بقينا نتلذذ باحاديث متفرعة علنا نخفف بالكلام حرارة شمس الظهيرة. فجأة وجدت الزايرة ناظمية امامنا تأمرنا ان نغادر الماء ونختمي بسقف الصريفه المبني من القصب. التصقت بي وردة من الخلف، كي لايرى احد تفاصيل جسدها حيث التقصت مللابسها بدمها بسبب الماء، واخذنا نمشي ببطأ، وحينما وجدنا الشارع فارغاً قرصتني وهرولة امامي مثل غزال له اجنحة الفراشات. لكن وقبل ان يأتي الغروب وجدت رأسي ثقيلا كلدوٍ ينقطع به الحبل ويغور ببطن بئر عميقة..

رأسي ثقيل وصداع حول جمجمتي الى قنبلة تكاد تنفجر فيمنعها الصدء، حاولت ان اوازن خطوتي، ارتعش بدني وسقطت عندها صرخت وردة.. يا ربي الم اقل لك ان لاتضع ملابس مبللة على رأسك.. كم انت عنيد.. هاهي الشمس تمشم هذا العناد.. انت محموم.. استمرت في الكلام لكني لم عد اسمع ماتقول وغاب وجهها المذعور تماما وانفلق الافق عن سائل بنفسجي كان يقترب مثل جحافل من الجيش، ثم اخذ ينبسط على الكون كنسر خرافي عملاق، اخذ

اللـــون البنفسجي يقترب ويقترب، شعرت نفسي امام طوفان اخذت اصرخ، ولا احد يسمع... فجأت اخذ اللون البنفسجي يتقلص ويصغر شيئا فشيئا، اتخذ شكل شراع فزورق صغير ثم خفق وتحول الى حمامة.. كانت ذات الفاخته التي نحرسها ونحميها انا ووردة.. اقتربت مني، كان بها جرح لم ينقطع نـــزفه.. اقتربت.. اقتربت فمددت يدي اليها.. ولما اقتربت تحولت الى رجل يرتدي عمامة غريبة وملابس سوداء ثم بسط يديه وقال بصوت ملئه الخشوع:

قل لقوجانس انت قلب حكاري العصية.

ثم امـــسك بخاصـــرته وصرخ متوجعا واخذ يتهاوى فبان صليب معلق برقبته. بعدها عاد اللون البنفسجي بالظهور لكن ثمة شيء خالطه فتحول الى لون دم اسود دبق سرعان ما جرف الرجل الغريب، فاخذ يصرخ بي: قل لوجانس انت قلب حكاري العصية.

هرولت خلفه كي انقذه، لكن ايد ظهرت امسكتني.. فزرت فاذا بوردة تمزني وتحظنني، وتقرأ سورا مغلوطة من القرآن مع كلمات غريبة سمعتها من امها.

وجـــدت نفـــسي غارقاً بوحل من الحرق الحار، قالت لي الزايرة ناظمـــية مادم جسدك رشح العرق واستيقظت اذن فانت خرجت من ضربة الشمس سالماً، عليك ان تحذر الشمس كحذرك من وردة فالحب يعمي عن الاضرار ويُخيّل الينا ان كل ما حولنا لذيذ ومبهج.

قلت لوردة التي احمرت وجنتيها (شنو هل حجي يُمّه):

اني رأيت لوناً بنفسجيا يتحول الى قارب ثم الى حمامة ثم الى قس يقول: اخبر قوجانس بانه قلب حكاري العصية.

مسحت عليّ وردة وقالت هذا لانك كنت تفكر بقوجانس قبل ان تـــصيبك الحمـــى فظهرت افكارك على شكل كوابيس. لكن امها

سكتت، اقتربت وقالت اعد عليّ ما رأيته، كررت الكلام وهي تحدق بـــي مثل صقر. ثم نهضت:

– علـــيك ان تخـــبر الـــشيخ صالح، ولا تتكلم مع اي احد انك شاهدت هذا الحلم.

ثم التفت الى ابنتها ورده وقالت بحزم:

– وانتِ ايضا عليكِ ان لاتتكلم بشيء. فسر الغريب لايفتحه الا غريب مثله. ثم قالت عليّ ان اخبر الشيخ صالح، لا احد يخرج سأعود سريعاً.

وفي ذروة الارهـــاق من المرض والذهول، قلت لوردة هناك سر وراء قوجانس.

اطرقت برأسها وقالت: الله يستر.

بقيـــنا في الـــصريفة وحـــيدين، كانت نسمات من الهواء تسرق سكوت القصب، مع خطوات للعابرين تعب التراب من امامها وخلفها باحذيـــة ونعالات ممزقة، فيما اروحة لسجائر رخيصة تمتزج باحاديث مكـــررة. بـــدت السماء محايدة، شيء من الناموس وقليل من البعوض يمـــارس رياضة التجول المعتادة، بينما رقائق الماء تتمايل كمشية العجوز المتعبة.

لأول مـــرة نكون لوحدنا ولا نتبادل القبلات ولا الكلام، كان رأسي بحظنها بينما وردة عيونها تسرح في مكان آخر. لم تنظر اليّ رغم ان يـــديها لم تتوقفان عن مسح رأسي، وانا بدوري لم اقاطع شرودها بكلمة.

فجـــأة اتانـــا صوت قوجانس وهو يصيح على الزايرة ناظمية ان تعطيه قرصة خبز فهو جائع. انا ووردة كلانا جفل من صوته، وكلانا انقطـــع الكـــلام في بلعومه، توقفت الحروف في منتصف الطريق بين

سكت ابن عمي جواد و لم ادرِ انا ماذا اقول

– لاتفكر بشيء... انس كل شيء الان ولاتتحدث به الى احد، هذا هو كل ماهو مطلوب منك الان. فقد يكون هناك عيون تتحسس وتخبر الوحش ببغداد عن كل شيء.

ثم ضرب يده على فخذي ونهض. فاطلت وردة:

– والشاي.. الا تشربه

– اشربيه انتِ معه.. انتما الان بحاجة الى الاتزان والروية...

ثم خـرج الـشيخ صالح من دون ان يخرج غموض كلماته معه فبقيت الانفاس مكتومة كأنما مخلوق غريب يقف فوق الرؤوس.

داهمـني شـعور غامض بالخوف.. خوف مختلف حتى ضربات قلبـي مـضطربة بـصورة لم أعدها من قبل. قلت لنفسي فلأحول الاقتراب الى الرب قليلا، اليس يقولون انه من يقترب اليه شبراً يقترب هـو الـيه ميلا.. توضأت واتجهت الى القبلة وحاولت ان اصلي صلاة المغـرب والعشاء، لكن بدون فائدة فاكثر من مرة انسى بأي ركعة انا وماذا قلت والى ماذا انتهيتُ، محتمل لكوني شخص ملعون هكذا قلت لنفـسي، او لفـرط ماكان ذهني معتقل بحالة الذهول، هكذا رحت اخفـف هلوسـة الشعور بالذنب والخطيئة. ماصدقت اني انتهيت من احاديـث النفس ووسواسها. نعم نحن نتعلم الصلاة منذ الصغر لكن لا احـد سـيقول لـنا ماالنفع منها، كأن هذا امر يجب ان يكتشفه كل شـخص حسب تجربته الخالصة، رغم ان هذه التجربة ان تعارضت مع رؤيـة المجـتمع فـانهم سـوف يجرمونك.. نعم هم لايعلمونك لكن يجـرمونك.. يقول لك ان الدين حرية لكن بشرط ان لاتخرج عن اي شـرط مـن الشروط.. مع الزمن سوف تلبـي جميع الشروط لكن سوف تنسى نفسك.

في الليل لاتخرج وردة معي، تبقى مع امها تعينها على تحضير وجبة العشاء ثم تأوي اليهن نسوة من هنا وهناك. تماما كتجمعات الرجال. والزايرة ناظمية تتفتح في هذه الجلسات خصوصا حينما ترتفع صوتها ايدي الناعمات القادمات من المدن حيث تتسلى البنات باحاديث الزايرة ناظمية عن عالم الهور المسحور بالحوريات التي بعضهن يتحول الى سمك في الفجر او عند الغروب، وقسم منهن يتحول الى حمامة او نوع آخر من الطيور. وعن العفاريت الذين يغارون من الانس الذين يسرقون قلوب الحوريات فيتمتعون بنساء الانس والجن. هولاء العفاريت الذين يتشكلون بهيئة الخنزير البري او الافاعي او الرفش المخلوق الذي يشبه السلحفات لكنه اكبر منها وصدفته مستطيلة وله مخالب موجعة.

والزايرة ناظمية تطعم حديثها بماتحفظه من اشعار الحوريات العاشقات، وابوذياتهن الحزينة، ورسائل العفاريت المُشفّرة التي لن يستطيع فكها سوى غرباء يشربون الصبر من اجل الحبيبات كما تشرب البحار الشمس، وكما شرب الهور آلاف القصص والاساطير المثيرة.

تتكلم الزايرة ناظمية وتتكلم وتبقى افواه البنات والنسوة فاغرات والعيون تتوقد فيها نيران الدهشة. وتستغرب الناس كما يستغرب الرجال قدرة ناظمية على الحفظ ومعرفة الكثير عن الهور اكثر من نساء كثيرات اكبر منها سناً.

لكن اجمل الحكايا تبقى حكايتها مع زوجها الشهيد راغب حيث يتبدل صوت ناظمية ويأخذ جسدها يتمايل وتأخذ عيونها لفتات الهروس الخجولة:

كبرنا معا.. كنت اخرج اسرح مع الجاموس، واعتني ببطة صغيرة جلبها الشيخ صالح، الشيخ صالح كان ليس كما ترونه الان. كان

طـــويلا وضـــخما.. لا لـــيس بسبب انني كبرت فصرت ارى جسده اصغر.. صدقوني صالح لم يكن شيخا يحب الدين الى هذا الحد.. حينما تفقد من احبيت الزمن يقصّر هامتك، يمسحك بالارض.

في يـــوم سقطت عن ظهر الجاموسة وانجرحت ساقي بالقصب، طـــار عقل راغب واخذ يلحس ساقي وهو مذهول وانا مرتعشة، ولما انتـــبه غاب عني سبعة ايام.. سبعة ايام تحولتُ فيها من صبية الى انثى. وســـبع سنوات ردد الهور شِعر راغب وغزله بناظمية.. وسبع سنوات ســـكر القـــصب والسمك والطيور والزوارق بصوتي وانا ابعث بشِعر الدارمـــي لـــراغب رغم انه لم يفارقني سوى مرات قصيرة يصيد فيها السمك او يذهب للمدينة لشراء الملابس واغراض الطبخ والتبن.

وفي يوم قال راغب لصالح:

- عمي ليش ماتتزوج.. يعني عندك جرح ما تريد تنساه

- اشلون انساه.. اشلون؟!

في تلـــك الليلة ضعف الشيخ صالح امام الحاحات راغب، فانهار جدار الامتناع وراح ينفخ حسراته مع دخان السجائر:

في ذلـــك العام اختفت الحنطة من الجنوب.. هل تصدق انه يمكن ان يكون الجنوب بلا حنطة ولا تمر.. هل تصدق؟!

كـــان اول شهر لي احتلم فيه وابلغ مبلغ الرجال، ولقد ضحك ابـــــي كـــثيرا حيـــنما وجدني اغتسل في النهر في تلك الليلة الباردة، وامرني ان اسخن الماء بالحطب، وان لا اتصرف كاللصوص ذهبت مع ابـــــي الى السماوة حيث الشيخ مصباح قد خبأ الحنطة والتمر عنده، فـــبات قطب الرحى تلتقي عنده العشائر. هناك وجدنا عشائر النجف والـــرميثة، والحلة متجهزين. وكان الجميع يتحرك بحذر خوفا من اهل تكريت والعوجة الذين قيل ان أصولهم غريبة عن طيننا ولهجتنا وارضنا،

وهـــم الـــذين حكـــى عنهم الهور بان الله لما خلقهم نسى ان يضع في صـــدورهم القلوب، كنا نخاف وصول الاخبار اليهم فهم يعملون مع الانكليز.

كانـــت رحلتـــنا شـــاقة، فلاول مرة نشاهد فيها الانكليز، كان يعملون على مد سكة حديد، كانت عيونهم تتلامع بصحة وافرة بينما رجـــال وصـــبية وشيوخ، يتهالكون من العمل تحت سياطهم الآمرة. وكـــان معهم هنود اجلاف ينبحون على الناس ابشع من نباح الكلاب الانكليز المدربة. كانت تلك المرة الاولى التي اشاهد فيها الانسان تحت سلطة انسان مثله.. نحن في الهور جميعنا سواسية بما في ذلك النساء، لذا نختلف حتى عن اهل العشائر في القرى والارياف.

كـــان الدلـــيل الى الشيخ مصباح امراة نشمية وشجاعة، الشيخ مـــصباح يـــريد تأديب الانكليز وربعهم، اشترى جميع الحنطة والتمر، فاخـــذت الـــناس ترحل اليه وتطلب وده، وبذلك جمع العشائر حوله. وكـــادت الـــضربة القاضـــية ان تقصم رقبة الانكليز وجماعتهم، لكن الخبـــيث والنذل دائما موجود، مثلما يوجد ملاك يوجد شيطان، قبل التحرك بليلة واحدة هجم الانكليز على السماوة، وتشتت الشمل امام قـــصف المدافـــع ولم تفلح مقاومة المكَاوير والعصي والبنادق ام عبية والبدوية، التي كانت انواعاً قديمة من السلاح.

خبئتنا تلك المرأة نفسها في منـــزلها، وهناك شاهدتما:

يا آلهي سبحانك حينما تنـــزل الجمال مرة واحدة.. كانت ابنتها اسم على مسمى: نور.. لقد اعماني ذلك النور.. وادرك ابـــي ذلك، لكن ساعة الموت كانت قريبة، عشت الحب ساعة الموت. عند الفجر هجم الانكليز على المنـــزل.. كسروا الباب، وضربوا المرأة على رأسها حيـــنما وقفت امامهم لتأخيرهم وهنا صاحت نور اهربوا من السطح،

قـــال ابـــي لابد ان اشاغلهم.. اذهب.. وقبل ان تنـــزل دمعتي دفعني ابـــي.. ما ان صرت في منتصف الدرج حتى سمعت صوت ابـــي وهو يـــشتبك مع الجنود: هاي ارجالك ياحيدر الكرار.. كرار وأنه الدار.. مجنون ابحبك ياحيدر

– اسرع.. اسرع.. كانت تدفعني نور وتكرر ان اسرع لكن دربكة احذية الجند الثقيلة كانت خلفنا.. صاح الجندي: استوب..

عرفتُ انه يقول توقف.. لكن نور صرخت: اهرب

وانـــدفعت صوب الجندي صارخة.. قفزت من سطح البيت الى ســـطح الجيران، هرولت من السلّم وخرجت من الباب الخارجي الذي وجدته عند عتبة الدرج، وقبل ان يعرف اهل البيت القضية ابتعدتُ.

بعد اربعة اشهر عدت لأطمأن على ابـــي وعلى نور.. فوجدت البـــيت هامـــدا. ابـــي نفض انفاسه، ونور وامها اختفت الى الابد.. الـــبعض قال لي انهما هربتا الى ايران.. كبرتُ وبقي وجه نور ينعكس على الماء كلما ظهر القمر وصار بدراً.

تقـــول ناظمية: لقد انعجب راغب بحكاية صالح، لكنه رفع رأسه وقال له:

– والانكليز واهل العوجة راس البلى

– اي نعـــم.. ما نخلص منهم والان جابوا حزب البعث وهذوله الـــتكارته تربات الانكليز، لابد ان يخففوا الهور، لازالت كلمة حسن البكر تترد: نحن وصلنا بقطار امريكي.

– خسه.. وراسي يشم الهوا، قالها راغب وهو ينتفض انتفاضاً.

لقد كبر راغب.. هكذا بليلة واحدة.. كم تطيل الحكاية الاعمار وكم من عُمرٍ تعلق بصنارة قصة فكانت نهايته.

هنا يتبدل صوت ناظمية.. يتألق ويتلألأ ضوء غريب في عيونها، ثم يعلو صوتها مثل نافورة من الشوق والعناد والحنين:

عـين العـين حامـي العـين بالعين

لجـل عيـناك أثـر مـرض بـيه

تـرف لجلـك نبـيح العـين بالعين

مـدام العـين ويـه العـين

ابـد مازلـزلك حـالي وهـدك

عفـاه شـيحمل الكلفـة وهـدك

كـصدي بـس اصـيدك وهـدك

وريـد اتـصير حـر وتـرد لـيّه

اخـذ راغب يغيب... يتحول كثيرا في الهور.. يضع يده في الماء كأنه يتلمس جسدا يريد الاطمئنان على صحته.

وامه برحية كانت تحاول ادارة دفة شراع الروح الى جهة اخرى بعيداً عن مطبات المصيبة:

يمه اسمعني.. قصبة وصارت بالهور وروح الهور ابعيده

يمـه اسمعني: الروح من تعشق بالسما ايصير لها نجمه ويضحك لها بنات اصغار... يُمّه امشي نتعلل يُمّه

- عند من نتعلل يايُمّه؟!

- يم النجمه.. ومن نفرح ايصير الليل نهار.

انتبه وليدي ولاتتأمل بالجداف أبلهفه

لاترحل وتخلي جمر ابقلب امك مايطفه

اتروح ابيعيد ويظل مشحوفك واجف ما يمشه.

لاتعّند يبني وخلي فالاتك ماتفاول بشي مايفيد

روح الهـــور أحليوه يابني.. لاتخلي حوريات بالبر تمشي، اتروح ابعيد.. بعدك لاتفرح جّنه ولايدور العيد.

يُمّه ادري بشراعك بيه شهوه، بس شهوة تقلل صبرك وزيّد

خذ روحي جسر ومعبر لحلامك بس لاصير ابعيد.

ذكّـــرت بـــرحية راغـــب بالزورق الذي سوف يبقى معاقا من دونه... ذكّرته بالفالة وهي رمح صيد السمك كيف ستتحول الى راية منكـــسة... ذكّـــرته كـــيف ستغدو الجّنة، اي زوجة الابن.. زوجته معدومـــة الفرح وتكون عالماً من الاحزان رهينة الذكرى، ذكّرته بكل ذلـــك واكثـــر، لكن راغب تحول الى صفحة ممدودة امام قلم القضاء والقدر كي يوقع ويختم عليها ختم الانتهاء.

توسلت برحية براغب كثيرا، هدرت مثل عاصفة ثم توقفت ومنذ ذلـــك الـــيوم عافت الكلام نهائيا. وحتى حينما حصل الذي حصل لم يهـــزها الخبر، كأنما تلقته منذ زمن بعيد.. ابقت دموعها حروفاً وقلبها عيوناً.

لم يبقـــي لي عزم راغب سوى رسالة اخيرة سجلها على جذوب القصب:

وانـــــت.. يانجـــــوم العـــــشق

أبحـــــنـــــسرات اللـــــــيالي

ويـــــــصفكَات الـــــــسعف

أبـــــــضحكات الـــــــسما

اهـــواج يـــا أحلـــى جـــرح

ياشـــــــــهوة قـــــــصيده

صـــار لـــراغب بندقية مع رمانات ناسفة يعلقها بخصرة.. وفي اول مداهمـــة لدبابات صدام حسين للهور عند اول خمس كيلوات يتم تخفيفها، تحـــزم راغـــب للغياب.. قالوا ان الذين شاركوا في المعركة لم يقتلوا جميعا بعـــضهم هرب وبعضهم تم الامساك بهم احياء، الغريب ان رجالا كثر اتوا من خارج الهور للدفاع عنه مع انهم لم يشاهدوا الهور ابدا..

ذهـــبتُ الى محـــل المعركة لم اجد سوى قطع من ثوبه الابيض.. كانت بقايا ثوبه دشداشته ملطخة ببقايا لحم محروق.. حفرنا له قبرا.. اقصد حفرنا لتلك البقايا ذكرى نعود اليها.. وجدت سبعة نساء يبكين معـــي... كل واحدة تقول هذا زوجي.. هذا خطيبـــي.. هذا اخي.. هـــذا ابـــي.. هذا ابني.. وباتت كل واحدة منا تغار من الاخرى، كل مـــنا كانت تريد حيازة النصيب الاكبر من الحزن.. لكن ما ان تمضي ســـاعة حتى تنقص واحدة.. فيصيبني ذعر اكبر، بانه راغب بالتاكيد، عند الغروب بقيت معي اثنتان.. ذهبت الى ذات المكان وكانت المرأتان موجـــودتان ايضا بقيتا تقتسمان معي الحزن والبكاء.. في اليوم العاشر تنـــبهت الى انهمـــا لايسترجعان ذكريات مثلي.. وحدي كنت اسميه واعدد له الذكريات.. ولما سئلتهما عما يمكن ان يكون فقيدهما قالن لي:

ان جمـــيع اقاربهم تم تصفيتهم في مقابر جماعية في مدينة الكوت، وحدهما نجيتا لان احدى صديقات أمهما سرقتهما سرقة قبل ان يأخذ قوات الامن البعثية عائلتهما.

جفـــت دموعي من المفاجأة، بينما احمرت اكثر عيون المرأتين.. بعدها انتني صفعة اليقين بان الذي في القبر هو راغب.. راغب لاغير.. ازداد عويلي كأنني احتفل بان لااحد يشاركني فيه.

يـــنقطع صوت ناظمية، وتتيه في مجرات الذكرى حيث كل شيء هناك يسبح بترنيمة الشوق الابدية:

سـباعنه بالجـول نامـت
وديناتـنه للـذل دامـت
وحـريم المعـزة ويـن هامـت؟!
صـعدت علـى العـالي وتعلـت
وبطاسـة الحـنة تحـنت
حديـثه وبعـدها ماقمـنت

بعدها كنت عند كل مغيب اضع رأسي بحظن الجدة رائحة ومرات هـي الـتي تضع رأسها بحظني وننسج بخيط الدموع سجادة الفقد.. خـيطين مـن عيني وخيطين من عينها، ثم ننكث الغزل ونعيد نغزل سجادة العذاب من جديد:

يُمَه يا يُمَه.. يُمَه يا يُمَه
إمعذبني هذا الحزن ما تعرفْ حالته
عاقدْ ويه عيوني حلفْ يمكنْ عليْ حالته
رابط مصيري ابحبلْ واجفوفه ما حالته
ما جففتْ دمعتي وقلبـي إبجمر ملّيتْ
ظليتْ أخاوي الجمرْ ما قلتْ أنا مليتْ
ومنه دفاتر حزنْ يا ما إشكثرْ مليتْ
يا يُمّه من الزغرْ باليني بلوه الحزن

ولـسنوات طـويلة كنت اشاهد القصب في ذلك المكان الذي سـقطت فيه عن ظهر الجاموسة، يلوح لي كانها يد راغب.. يلوّح لي ذراع القـصب، فارفع يدي والوّح له.. اضرب البردي في الماء بقوة.. يـندفع الزورق مثل السهم.. اقترب.. اقترب فلا اجد سوى القصب

وبعـــض اعشاش الطيور حيث الفراخ مغمضة العيون ومفتوحة المناقر على صرخة. بقيت هكذا وكدت اجن وكدت اسقط وردة من بطني.. لكـــن وردة اعادة الي توازني.. وردة كانت تضحك وتبتسم منذ ان ولدتها.. حتى انها لم تكن تبكي مثل بقية الاطفال.. لكم ان لاتصدقوا. لكنها لم تكن تبكي.. حينما ولدتها زارني راغب في المنام.. كان يبتسم هو الاخر، في الصباح شاهدتُ قصب الهور كأنه اوتارا من غناء.

* * *

انعـــشني وجـــود هـــبات هواء باردة، فاخذت اسير وحدي الى انتهـــيت الى الوحدة العسكرية الايرانية المقيمة في طرف همّت. كان غالبية الجند شبان اقرب الى كونهم صبية، قلة منهم ترك لحيته بلا حلاقة بالمـــوس، مما اثار استغرابنا فحلاقة اللحية بالموسى حرام حسب علمنا فكيف يكون جندي الجمهورية الاسلامية امرد؟!

كانـــو جـــنود ضـــجرون لايـــدرون كيف تنقضي ايام الخدمة العـــسكرية، وحتى الان لا اعرف لماذا كنا لانحب الاقتراب منهم وهم كذلك لايقتربون منا، هل هناك اوامر وجهت لهم بذلك مثلا؟!

لستُ ادري

مع ذلك اصرّت قدماي الا ان تصل اليهم، سلمت عليهم ووقفت بـــازاء جـــرف الماء ولما طال وقوفي اقترب مني احد الجنود ببزته الشبه صفراء تم تعليق اسم ناصري غلام، كتمييز لصاحبها. سئلني عما ابحثه ولمـــا وجـــدني فارغـــاً لهرني وامرني ان ابتعد... بدوري اخذت ابتعد فرائحته كانت حامضة.. وفمه غاية في النتانه.

كنت ابحلق في النجوم حتى ارتطمت بالخيمة التي فيها عباس كان يحدثهم عن السجن كالعادة:

ادخلو عصا سوداء، هي في الاصل انبوب مياه، في دبر كل واحد منا، كانت ارداف نا تتمزق باصابع الرجال الممسكين بنا، لم تنفع التقلصات الا في زيادة الالم، ثم شعرنا بان الخراطيم الصلبة السود قد وصلت الى البلاعيم والحناجر، بعدها جاء ماهو أمر وادهى، حيث بات الهواء يدخل الى اجوافنا عبر انبوبة هذه العصي.. كان الهواء يوجعنا بحدة.. والبعثيون يصيحون:

اتحبون الحميني ها.. اتحسبون نفسكم مثل اهل تكريت والعوجا ها.. اولاد القحاب.. راح نشبع بيكم نيك وقتل. تف

لم يرق لي الحديث، بل شعرت بالخوف الشديد، فمضيت عائدا الى صريفتي وما ان وصلت فراشي حتى تلاشيت في نوم عميق.

* * *

هاهو يوم آخر يمضي سريعاً.. او بطيئاً، ما الفرق اذا كانت الحياة حبل مشنقة للروح حيث كل شيء علامة احتضار او ندم.

همّت اقسى من الجحيم، ففي الجحيم ثمة تجدد ما حتى لو كان تجدد الجلود من اجل استأناف العذاب، بينما في همّت السكون مطبق وانت تحدق متى سينتهي هذا الوضع وكيف؟!، فكأن الانتظار وجه غول تطالعه ما ان تبدء الشمس بالشروق.

يقال ان العمر زورق، لكن ما الفائدة اذا كان النهر جامد والهور تم تجفيفه؟!

في الصباح قالت لي الزايرة ناظمية:

– عليك ان تساعدني يامفعوس.

فعلمت انها اليوم منزعجة المزاج فهي لاتخطابني هكذا الا في هكذه حالات.

– اريد ان اطمأن على جدة وردة يقول فليح انها مريضة.

طأطـــأت رأســـي وانا احمل كيس طحين صغير مع بعض الخبز الابـــيض المتكسر، خبز رقيق لا نحصل عليه الا بعد فترة طويلة تأتي به ســـيارات الاغاثـــة الدولية، لذا يعتبر هدية فاخرة في هذه الارض التي هجرتها الالهة والشياطين معاً او هي تقع في منطقة الحياد بينهما.

اكره فليح هذا ويكرهني اكثر. لا اطيق رؤية وجه.. وجدة وردة اسمها برحية، وهو اسم لنوع من انواع التمر والنخيل، هي امرأة معمرة في الـــسن لكنها غريبة الاطوار ومخيفة متقدة اللسان والعين، تشبه افعى عملاقة ذات عيون مرعبة خصوصا مع هذا اللون الاخضر الذي تضعه حـــول عينـــيها وعلى ذقنها وشم على هيئة نقاط متصلة مكونة ثلاثة خطوط خضر متوازية.

الوحيدة التي اشتهي رؤيتها هناك هي عزوزة.

وهـــذه الجدة نادرا ماتتكلم كأنها تمثال اثري، اذا الحّ عليها احد تجيب بجوابها العتيد الذي تتحصن به كحرز او تعويذة موروثة:

اللغة علف الالسنة.

اشـــعر بـــان ناظمية هي ايضا تكره فليح هذا فهو اخو زوجها الـــشهيد لكنه نقيضه او ظله الاسود.. الظل المشؤوم الذي يبقى يمارس تحركه بدون صاحبه.. بدون الشاخص.

حـــاول فلـــيح مرات عديده ان يجعلها زوجته الرابعة فلم تقبل وتمـــردت عليه واشبعته ضربات مدوية على وجهه حينما اقترب منها اكثر من اللازم فارشاً ابتسامة صفراء باسنان متسخة ومحفورة من كثرة التدخين.

فليح وزوجاته الثلاث وامه مع عدد لايحصى من الاولاد والبنات، يـــسكنون بعـــيدا عنا، هناك في الطرف النقيض للطرف الذي تسكنه

الوحدة العسكرية الايرانية. هناك فرقة عسكرية ايضا لكنها قليلة العدد بيد انها صارمة.

سـرنا طـويلا حـتى تعبنا. و لم يكن التعب بفعل طول المسيرة، فالـصباح لازال ينـشط الخلايا، لكن الزايرة ناظمية ما ان ترى احدا حتى تتحدث معه او يتحدث معها.. حتى القطط التي لا اعرف من اين يأتي بها البعض.

- هـاي بـزونة بـيت خليف.. سمنانه.. اي ماني متوهمه.. سمنانه

وقبل ان نصل صريفة فليح صاحت الزايرة ناظمية:

- وينج جدة.. كاعدين نايمين؟!

فتقاطر علينا صبية ونساء.. كانن زوجات فليح:

- هلـه ومـية هله بيج خيه... الحجية ابخير.. بس هذا افليح...

وعضت عزوزة اصغر زوجات فليح على اصبعها بحرقة:

-آخ منه افليح بس ايردج تجين على مود ايشوفج اهنا

ضربت ناظمية صدرها:

- يع.. وبعده ماتاب

- اشلون ايتوب.. درب الكلب على القصاب.. خيه (=اختاه)

اخذت عزوزة الكيس من يدي، ثم وقفت تتأملني:

- صـرت مثلـنا ملعون.. بس ماشاء الله اكبرت وصارت بيك عافية.

خجلتُ من نظراتها الثابتة نحوي، فتكفلت ام ناظمية بالاجابة:

- هذا الحضري له سبعت ارواح

قفزت ناظمية تقبل الجدة وتعانقها:

- الشر بره وبعيد.. شنو عندي غيرج حجيه

– لا تخافي ابنيتي.. عمري عمر تفكه (=بندقية)

بقي صبية افليح يتطلعون الي باستهزاء ويحاولون جعلي اتكلم كي يسخروا من لهجتي، وهم بالعادة يستخدمون مفردات لايعرفها احد سوى القاطنين في الهور، كي ابقى مثل الاثول بينهم لايعرف بماذا يشتمونه هولاء الشياطين.

ها قد جاء افليح.. دخان سجارته وسعاله يسبقه:

نظر طويلا.. دقق النظرات بجسد ناظمية ثم ابتسم ابتسامته الصفراء المعهودة:

– عيني عليكِ باردة.. والله ولا عرفتكِ ظنيتكِ وردة.. شنو اصغرين لو انتِ بعدك بنت.. شباب

– وضعت ناظمية اصبعها على خدها ولوت رأسها، ثم تطلعت اليه والشرر يتطاير من عينيها:

– استحي ولك.. افروخك كبروا.. وهاي ثلاث نسوان عندك.

ينزع افليح عرغجينته وكوفيته من رأسه ويجلس:

– لا.. لا.. لاصيري صاحبة ظن سوء.. وتعرفين حرام ايروح الحلال لبعيد ويصير بيد غير اهله

تهتز ناظمية:

– شوف نجوم السماء اقربلك من شَعر راسي تسمع

– بس انتِ زوجة اخوي.. لا موبس هيج.. انتِ خطيبتي قبل مايتزوجكِ

– ابعمري ماكنت خطيبة الك..

يرتفع صوت افليح:

– انا اتكلمت ويه امك قبل مايخطبك راغب

تزحره الجدة برحية:

- انجب ولك... هاي سالفة وخلصت.. وناظمية رافضة الزواج وماقبلت ابجد بعد موت اخوك.. لو قبلت بالزواج جان الك حق.

ضرب افليح الارض وخرج.

قلت لناظمية:

- خالة انا رايح

فصاحت عليّ عزوزة:

- هاي وين بعد وكت

وقبل ان اجيب نهضت فبان بياض ساقها الممتلئة من ثوبها الذي ارتفع، وقالت لي بابتسامة: تعال رايدتك ابشغلة

تطعلت اليها:

انا مسوية شوية جبن واريدك تاخذه لوردة وقول لها خالتك عزوزة كلش زعلانه عليك من زمان مازرتينه.. لوتكبرتِ وصرتِ تستحين؟!

ثم رفعت اصبعها: ولاتنس تنطي اشوية منه لبن عمك جواد الي ماشفناه صارنه زمان.

اخذتني من يدي.. كانت يدها البيضاء الممتلئة دافئة وطرية.

دخلت الى صريفة اخرى ممتلئة بالاغراض ومهملة كلياً، واخذت تبحث

انصت ظهرها.. ارتفع الثوب فعادت ساقيها تبرقان.. التصق ثوبها الضيق على جسدها اكثر فنفردت عجيزتها الى تلين ينبضان بالوجد وشهوة الاحتظان.. لا اعرف.. هناك شيء يشتد داخل سروالي، وفي غمرة انشغالي بنفسي ونشوتي وجدت عزوزة ترمقني ثم اخذت تقترب ببطأ مثل غزال:

– ولك شنو هذا ملعون؟!

ادخلت عزوزة يدها الى هناك، امسكت بالعضو المتوتر، بينما تجمد كل كياني

ابتسمت بمكر.. شنو الي خلاه يتوتر.. شنو شفت.. عاجبتك؟!

نزعت عزوزة سروالي ثم جلست على تل من الملابس والبطانيات الرثة جرتني من عضوي بينما كانت يدها مشغولة بابعاد ثوبها عن صدرها المنتفخ وضعت عضوي بين الربوات الصغيرة.. يالهي ماهذه اللذة.. ماهذه الطرواة الساحرة مصت عزوزة قلم الامتحان بشبق ثم قبلّته واخذت تحكه بثدييها حتى نفر شيء مني

–شنو بلت على روحي؟!

– لا ولك اثول هذا مو بول.. هذا حليب رجال.. هذا مطر العافية

مسحت صدرها، قرصتني وقالت من يطوّل راح ادللك بس خلي هذا سر بيني وبينك افتهمت.. ولا صير اثول.

مدت يدها فاخذت سروالي منها.. ارتديته وتناولت منها طاسة مملوءة بقطعة جبن كبيرة. ولما عزمت على الخروج، قالت هاك اكل فص التمر هذا على مود ايقويك ويخلي خصوتك تكبر ابسرعة.

انطلقتُ الى وردة.. لكني شعرت بان همّت كبرت... وان السماء باتت اكثر زرقة.

-2-

يتكون سجن ابو غريب من عدة اقسام كل قسم هو بناية مستقلة واستطيع ان الخصها لكم كالتالي:

1. قاطـــع الإعـــدام، ويؤخذ إليه المحكومون بالإعدام، وقد بنى هذا القاطع الفرنسيون حيث جهزوه بمقاصل اتوماتيكية للإعدام، يمكن بواسطتها إعدام المئات في يوم واحد.
2. قاطـــع الأحكـــام الثقيلة، ويقاد إلى هذا القاطع المحكومون بجرائم جنائـــية ثقيلة كالقتل، والذين صدر بحقهم الحكم بالسجن لفترة سبع سنوات فصاعدا.
3. قاطـــع الأحكـــام الخفيفة، ويؤخذ إليه المحكومين بتهم خفيفة غير سياســـية، والذين تكون أحكامهم بالسجن لفترات اقل من سبع ســـنوات. ويتـــبع هذا القاطع القسم التاهيلي. وهو قسم خاص بالأحداث.
4. قاطع الأحكام الخاصة، وهو خاص بالسجناء السياسيين أو سجناء الضمير حيث إن جرائمهم هي مخالفة النظام في الرأي أو الاعتقاد وينقسم قسم الأحكام الخاصة إلى قسمين:

أ. المفـــتوحة، ويقـــاد إلى هذا القسم المتهمون بتهم سياسية – عقائديـــة من غير الإسلاميين كالبهائيين والآشوريين والشيوعيين والأكـــراد والتـــركمان وأيـــضا من الإسلاميين غير الشيعة

كالإخوان المسلمين، ويدار هذا القسم تحت إشراف (مديرية السجون العامة) كما أن المسجونين في هذا القسم يتمتعون بحق الزيارات الدورية المنظمة من قبل عوائلهم، كما يتمتعون بأسباب الراحة النسبية كالمشي، والاستحمام، والشراء، والذهاب إلى المرافق الصحية وما شاكل

ب. المغلقة، وينقسم هذا القسم إلى قسمين:

الأول: قسم الأمن، وكان يُشار إليه عندهم بـ (قاف – 1) ويحتجز في هذا القسم جميع فئات المعارضة الاسلاميه الشيعية، ويقع تحت إشراف (مديرية الأمن العامة).

الثاني: قسم المخابرات، ويسجن في هذا القسم المتهمون بتهم ترتبط بالأمن الخارجي، وكذلك المعارضون لصدام من داخل حزب البعث، وتشرف على هذا القسم (مديرية المخابرات العامة).

ويُطلق على هذين القسمين (المغلقة) لأن الزيارات واللقاءات فيها ممنوعة، إلا في حالات استثنائية، بينما (المفتوحة) تسمح فيها الزيارات المنظمة لعوائل السجناء.

في هذا السجن تنعمتُ بجميع خدمات حكومة حزب البعث والظام القومي العفلقي. من تعليق بالسقف وفصل الاكتاف، الى الخوازيق، وكهربة الجهاز التناسلي. كان في بعض الاقسام نساء، حبلن وولدن داخل المعتقلات، كانت الشوارب الكثة النامية على شكل رقم ثمانية اشارة الى ثمانية اشباط تاريخ انقلاب البعثيين الاسود، تنظر بلذة الى ولادات النساء ونزيفهن، يتمتعون بنتائج الزنا والاغتصاب. البعض كان يحاول الانتحار عقيب رؤيته اغتصاب امه او اخته او ابنته امامه. كان الانتحار غاية وأمل للخلاص من الاحساس بالعار والمهانة،

والطـــريقة هي عند الذهاب الى المراحيض يبلل الشخص نفسه ويقحم جسده بنقطة كهرباء. حتى هذه الامنية كانت في كثيرة من الاحيان لا تتحقق.

بعـــد عشر سنوات خرجت من سجن ابـــي غريب، احتفلت بنا المنطقة. وتسارع اهلنا بتزويجنا كأنهم يسابقون الزمن الذي فاتنا الكثير مـــنه. لم نـــدر بان حكومة صدام حسين كانت تريد تخفيف الاجواء واشـــغال الـــناس عن المذبحة التي جرت في انتفاضة شعبان عام 1991. حيث بات نصف الشعب منفياً خارج العراق.

خطـــبت اكثـــر من واحدة فلم تقبل، كانوا يقولون اني كبرت وآخرون يقولون اني فقير. هزني ان ارى العائدين من الكويت يخطبون اجمل الفتيات وتقام لهم اكبر الاعراس ولااحد يقول لهم ان هذه البنات بعمر بناتهم.. آه من المال. الذي ليس بجيبه فلس لايساوي فلس.

قذف جواد حسرة وخاطب عباس:

- اي صدق.. الفلوس هي الاساس عند الناس.

- لا مو كل الناس ابني، رد الشيخ صالح

- لا والله ياعمـــي، الناس لو تاخذها بالمال لو تضربها بالقندره، قال عساف.

لـــيش هـــذا الكلام عمي.. موكل اصابعك سوه، اجاب الشيخ صالح.

وكـــي لايتشعب الحوار ويفقد عباس هيبته، رفع من صوته قليلا مكملا الذكريات:

عملت مع ابـــي في النجارة، ليست نجارة الاثاث وانما قالب البناء. كـــان ابـــي ماهراً لكن بخله وبطئه يمنعانه من التطور. بعد سنة تجمع لدي مال قليل فبادرت ابن عم لي ان نفتح مشروع بيع قطع غيار للسيارات.

- شنو ما تزوجت يعني؟!، سئل ابن عمي جواد

أحّمر وجه عباس بضيق:

- نعـــم تزوجت... تزوجت اقبح امرأة في المحلة، واكثرهم سوء اخلاق وحدة لسان.

- واين هي الان.. طلقتها؟!، سئل الشيخ صالح

- لا عمـــي.. لا.. مره مثل هاي ايراد لها عزيمة جيش على مود تتخلص منها.. بعدين تريد الصدق انا خلفت منها طفل وشنو ذنبه.

- هم صدق.. عفيه عليك، قالها الشيخ صالح وهو يهز برأسه.

- هـــي الان في سوريا، وسوف التحق بها. قلت لها ان تقدم اوراقـــي الى الامـــم المتحدة كي نحصل على لجوء سياسي في دولة اجنبية.

- دولة كفر تقصد؟!!، قالها بحدية ابن عمي جواد فرمقت العيون الى عباس. الذي تلعثم، ثم انفرجت اساريره وقذف بابتسامة كاذبة:

- يعني شنو الي جابرك على المرّ غير الامر منه.

-بـــس هـــاي انت وصلت للجمهورية الاسلامية وانت بعدين ســـجين سياسي، يعني هماتين مجاهد.. اشلون تقبلها لنفسك ان تعيش بدولة كافرة؟!

هكذا قال له الشيخ صالح.

- ياعمي انا طالب رزق واتمنا ان اكون غني في يوم من الايام

- عجـــيب مـــن قبل ايام السجن وحتى اليوم لم تَمُت فيك هذه الامنية؟!

قالها عساف والاستغراب يستوعب كل تفاصيل وجهه ويده.

- يعـــني طلـــب الـــرزق مـــو عـــيب.. بس اصير غني ارجع واساعد الفقراء.

- اكـــيد لـــو تريد ان تسكتنا عباس، قال ابن عمي جواد وهو يبتسم بخبث ويصوّب نظرات مركزة الى عباس.

((اللـــهم ارزقـــنا حسن العاقبة))، قطع بها الشيخ صالح الحديث بعدها دخل قوجانس الصريفة وهو يصيح: مشتهي خبزة بالحم

فخرجت الاهات من افواه الرجال مثل الاطفال:

هـــاي شـــنو الي ذكرك.. افتحت شهيتنا.. الله يفتحلك عقلك ولك.

* * *

مـــا ان تقترب الظهيرة حتى تكون السماء بيضاء مثل الطباشير، فنـــبلّل قطع من الملابس بالماء ونتدثر بها. وجدتُ وردة تخيم فوقي مثل سرب من الفراشات مانعة حرقة الشمس.

- تعال معي

- اين؟!

- اريد ان اطمأن على الفاخته

- اي انا نسيتها.

في منتصف الطريق وجدت اولاد فليح يقطعون الطريق. وجوههم تفضح انهم كانوا ينظروننا.

- وين رايح مع بنت عمنا؟!

احاطـــوني كحلقة من نار وكره، بينما كبيرهم الصق ثوبه المتسخ الممزق بصدري

- تعرف صرت كبير وهي كبرت وعيب اطلعون سوية وانت غريب

دفعته وردة بقوة:

- احنا كبرنا بس انتم لازلتم جراوة

رفع يده لضربها فتلقيتها منه

احاطـــوا بـــــي يضربونني بايديهم وارجلهم وعصيهم، ووردة تصيح:

- راح ايموت مو كلكم عليه.

لم يكـــن امامـــي سوى ان اتشبث بكبيرهم ((راجي)) حيث اني فقدت الامل في ضربهم جميعاً. حاول ان يتخلص من اسناني لم يستطع، شـــعرت بدفـــئ الـــدم بـــين اسناني، كان يضربني على رأسي، على خاصرتي. لكن هي هات ان يفلت مني.

فجأة انفضت ركلات اخوته، و لم اعد اسمع سوى وردة تصيح:

تركه الخاطر الله.. ولك يمكن راجي مات

اهتز جسدي بموجة ذعر حينما سقط راجي مغمي عليه بلا ادنى حراك.

ثم هجـــم علي اخوته: قتلت اخونا لازم اتموت، فصرخت وردة الـــتي لاول مـــرة انتبه لرمان صدرها متكور هكذا، تجمع الناس الذين امسك كل واحد منهم بصبـــي.

في ذلـــك الـــيوم، بين تكور صدر وردة والدم النازف مني والدم العالق بين اسناني، ادركت اننا لم نعد صبية.. لقد كبرنا

لم يمت راجي، بل كانت اصاباتي اكثر منه، كل ما في الامر انه لم يتحمل عضتي المستمرة في رقبته.

طلـــبت الجـــدة ان يتم التبري مني، وان تنال وردة جزائها فهي السبب حيث انها الاكبر سناً والانثى هي مركز العقل.

بيـــنما زوجات افليح كنا سعيدات لكونهن اكتشفن ان الابناء قد كبروا واصبحوا رجالا هكذا فجأة في غفلة من الزمن.

وحدها عزيزة كانت تواسيني وتدافع عني.

– بس هذا وحيد.. يعني واحد يتعارك مع عشرة.

خطـــيه هـــو الى الان لايعرف بان عائلته امسك بها جيش صدام ويمكنهم انعدموا.

اخـــذني ابـــن عمي جواد الى خيمة الشباب، وتحدث عباس عن عـــذابات سجن ابـــي غريب كعادته و لم اسمع منه شيئا، كانت آلام الجروح اكبر مني.

فكرت بوردة ثم تذكرت الفاخته، تلك الطائر البريء اليعون، عبثا توسلت بجواد ان يتركني اذهب لرؤية الفاختة، فلم يقبل:

– اتريد اشوف الفاختة.. لو وردة.. يامليعون؟!

–والله اريد اطمأن على الحمامة.

في الليـــل تسرب ابن عمي جواد الى حيث لا ادري.. هو يجلس قلـــيلا مـــع الشباب ثم يغادر.. في تلك الليلة حرت كيف انام فجميع جوانبـــي تؤلمني، كل الجسد بات قطعة من الشكوى وضجيج التوجع.

وما حرت فيه في الليل اجابني عليه النهار.

لم اصـــدق انني نمت، لكن الروبعة التي صنعها افليح كانت زلزال ايقض همّت بكاملها ذلك اليوم.

افلـــيح ومجموعة من الرجال بايديهم عصيهم يصرخون على ابن عمي جواد ان يخرج:

– شنو القضية، صاح الشيخ صالح

تلمض افليح ثم صرخ وهو يقترب من الشيخ صالح:

– جواد البارحة نام مع زوجتي عزوزة

انفتح فم صالح مندهشاً، مثل فجوة احدثتها قذيفة.. لكن العيون كانت اكثر دهشة.. كأن الكون توقف بما في ذلك القلوب.

– مامعقول، قال الشيخ صالح

- صدق ماتستحي، قالت ناظمية.
- الان.. همسه انا طالب ثار، قال افليح
- بس جواد عندي دخيل، قال الشيخ صالح
- لو اقتله لو تطيني ناظمية، وصير وحده ابوحده
- انجب.. شوف افليح.. جواد دخيل وناظمية ماهي اخت جواد ولا تقربله على مود اصير وحده ابوحده، لو تريد تتحجج؟!

هجم افليح على ناظمية، صرخت، رفع الشيخ صالح يده، فتلقاها افليح بعصاه، صرخ الشيخ صالح، فهب الرجال معه، عندها تدافع من كان مع افليح وقتتلوا. ولم تمدء المعركة الى الليل. حيث بقى الكثير تحت رحمة البعوض والحرمس، اذ تكسرت الصرايف وتبعثرت الاغراض التي فيها حيث تم استعمال الاحجار والعصي وكل ماتناله الايدي في المعركة. كان الجميع يضرب بحقد كأن الضرب والاعتداء حاجة اساسية للانسان فاذاما كف عنها فترة من الزمن زفرت به الروح لأدنا مشكلة. كان الجميع يتمنى لو تكون حرباً الجميع فيها عدو الجميع، كأنما الحقد شهوة كاملة في بعض الاحيان.

وقبل الفجر، اتى عساف الى الشيخ صالح وقال له ان جواد وعزوزة قد هربا من همت وهم الان يتجهان الى داخل ايران.

ضرب الشيخ صالح على جبهته: مصيبه.

شعرت تلك الليلة باني وحيد، وحدة موحشة.. وحدة العاري المقيد امام الوحش الجائع الطليق. اتت وردة فاسندت رأسي اليها وبكيت كأني لأول مرة اكتشف فيها البكاء.

* * *

مـــنذ ذلـــك الـــيوم وهِمّت باتت منقسمة الى نصفين الشمالي والجنوبـــي.

وفي ضـــحى احـــد الايـــام اتى افليح ومعه مجموعة من الرجال، فتأهب القوم الا ان شيخ صالح قال لهم:

- الوجوه ماهي جايه تتعارك وراها سالفة.

فالوجوه دفتر ممزق الغلاف كما يعتقد المعدان.

تقدم افليح رجاله ووضع يديه على خصره وقال بثقة:

- نحن اتينا لأخذ هذا الصغير فجواد ابن عمه، واذا كانت ناظمية موقريته فهذا ما تكدر تحميه ياشيخ صالح.

- شـــنو اتريد تكتل هذا الصبـــي ابجرم ماهو جرمه، قال الشيخ صالح

- لا ابقيه رهينه، لا زم جواد يذكره ويجي ياخذه بالسر.

- اتركني افكر وتعال باجر.

بعـــدها نظـــر اليّ الشيخ صالح، كانت جراحاتي لم تندمل بعد.. لكـــني تـــركته ورحـــت صوب الفاخته. لم نجدها في عشها فرحت انتظـــرها، كي اشتكِ اليها. شعرت بها قبل ان تصل وتسند رأسها الى كتفـــي.. اخذ كتفي يتبلل بالدموع، التفت الى وجهها وما ان التقت العيون حتى شهقت وردة:

- راح نتفرق..

احتـــضنتها.. وبقيـــنا نبكي بصمت و لم ننتبه لمجيء الفاخته التي كانت تتأملنا بحزن غريب.

في الصباح اتى افليح تناول من ناظمية صرة ملابس

- هاي ملابس وشوية اغراض، ديربالكم عليه ولاتخلي افروخك يشبعون بيه كتل..

صاح بوجهها افليح، لا شأن لكِ بالامر:

- انتِ معليح.

حـــتى تلك اللحظة كنت ممسك بيد وردة، جرني افليح، حاولت ان اتماســـك بـــين الرجال لكن دموعي كانت اقوى من صغر الترفع فجـــرفت خـــدودي... انسال دمعها قبلي و لم يكن لنا مناديل سوى الغبار.

رغم ان وردة قالت: ((راح ازورك ولاتخاف على الفاخته راح اديـــر بـــالي عليها مثل اختي)).. فحاولت ان ابتسم للتشبه لكن لم استطع.

مـــا ان وصلنا حتى رمى افليح صرّة الملابس الى زوجاته وصبيانه قائلا لهم هذه شوية اغراض شوفوا شنو النافع منها.

واشار الى تلك الصريفة المهملة التي كانت عزوزة تخبأ فيها الجبن، وقال ان نومي سوف يكون فيها.

دخلـــتُ الصريفة، كانت مهملة كماهي، لكنها موحشة وباردة كقبر. لم يكن امامي تلك الليلة سوى ان استدفئ بخيال عجيزة وصدر عزوزة، لكن وردة كانت تحاصر المكان.

* * *

تنتابني صور لعينيها.. عينا وردة تفيضان ربيعا على جدب سومر واكـــد.. ربـــيع تصهل له صحراء روحي الموحشة، ارى حمرة الخجل مـــواربة الـــنداء، فاصحو على سؤال الذكورة والانوثة وسر التكوين الدفين.

رفات رموشها مد وجزر يتنوابان داخل احشائي.. اتخيل المواويل الحزينة تقف للصلاة امام شفتيها المتراعشتان من كبت وصبر.

بـــصفنة الغـــريب اتطلـــع لوجهها فتتحول كوابيسي الى ازهار وصراخات الضيق الى مأذنة للفجر.. محراب للجروح هذا الشوق الذي تتفتح براعمه بروحي، محراب لجروح غريبة هذا الوجه الذي احن اليه ولا ادري لمـــاذا.. لا تغفو مقلتي الا وطيف وردة ينتصب امامي كترنم قـــصيدة شـــعبية يتغنى بها المردي وهو يهرب بالمشاحيف صوب مملكة الحـــوريات الخفية. اشعر ان جسدي كله يشتعل ورغم اغتسالي بالماء مـــرات عدة حتى ظنني البعض باني صابئي، فان هناك جمر يتوقد.. جمر تـــشهق له الروح واتلفت متخيل ان الناس سوف تسمع صوت صراخ روحي وهي تنادي: قلبـــي بحاجة اليك.. وردة

مـــضت عشرة ايام وتلتها عشرات مثلها و لم تأت وردة لزيارتي كما وعدت.. هل هي مريضة.. هل جرى مكروه للفاخته فتخجل ان اكتشف انها مهملة؟!

لم يخفـــف عـــني سوى السلام والتحية التي تأتيني سرا عبر بعض البنات الصغيرات والصبية، الذين يعبر بهم اهليهم الى القسم الشمالي من همت حيث تكون الصريفة- المستشفى ثم نقلها هذا الشهر لطرفنا. هنا تعلمـــت طقطقت اصابعي بعد ان طقطت المواجع عظامي، كان الحل الوحيد كي اتحمل كل هذا هو ان التعامل مع الوضع بانه لايعنيني.

بالاحـــرى انـــا لم افكر، فقد كنت اصغر من ذلك بكثير، لكن للروح حيلها التي تسلكها من اجل البقاء، والا فدقيقة واحدة اتأمل بها مـــصير عائلتي تجعلني انتحر، او كوني بلا احد تماما في هذه الارض بعد هروب ابن عمي جواد، بالتاكيد اصاب بالجنون.

هكذا بقيت اساعد زوجتي فليح على في شؤون التنظيف وجلب الحطـــب الممكن او الاعتناء بالجدة برحية التي لم تغير من طباعها رغم تملقي لها. كانت قليلة الحركة حتى اني اعتقدت انها تجلس على بيضة..

كـــأن تكون بيضة الاحلام التي سوف تتهشم ذات يوم وييان فسادها. ولم اكـــن ادري يوم ذاك لفرط سذاجتي ان الجدة برحية كانت تمارس آخـــر طـــريقة للعصيان.. كانت تمارس الاعتصام عن الكلام والحياة احتفاءا برحيل الهور المبكر الذي سوف تردفه رحيل البراءة الى الابد.

الجـــدة برحية طير لايقبل التدجين لذا لم تقبل حينما حلبها ابنها فلـــيح واخـــيها الـــشيخ صالح الى همت فرارا من زحف الجيش على الاهوار، لم تقبل هذا المرأة ان تنظبط وتبقى في الصف فتحصيها الايام بالها رقم من الارقام او اسم من الاسماء، حسب تنويعات التعداد حينما تـــأتي شاحنات الاغاثة الدولية لتوزيع الطعام وبعض الادوية.. وبقيت الجـــدة حتى يومها الاخير ترفض ان تتناول اي نوع من الاطعمة المعلبة التي تأتي بها هذه الشاحنات.

كانت تخاف من الطعام المعلب كخشيتها من الكلام المغلف.. لذا ســـوف ترحل ذات يوم قبل ان يسمع احفادها بخطابات القادة.. قائد الحكـــومة.. او قـــادة المعارضة، حيث الكلام بدل الغذاء وبدل الامن وبدل الوطن.

بعد ان اقوم بكل هذا كنت اجلس قرب الماء فتضطجع الوساوس السوداء بجانبـــي.. تتمدد باسترخاء فاشعر بها تكبر وتكبر وتغدو بحجم الوطن.. بحجم الخوف واكبر من الهور واكاد اختنق لولا ظهور طيف وردة الـــتي تغسل بابتسامتها الهور من هذه الوساوس فيعود مائه نظيفا وبراقاً واكثر وفرة.

الطعام قليل فاجعل ايامك ناحلة.. بمكائلها واحلامها.

ايـــام الغربة دبابيس.. وكنت اكبر وتكبر هذه الدبابس التي يجب ان انام وامشي فوقها، امر واحد كان يخفف عني هو وصول تحية وردة بواسطة الصبيان والصبيات الذين يأتون الى طرفنا بقصد العلاج.

قلتُ لـــ ((طرفنا)) هل الزمن يجعلنا نعتاد على المكان حتى لو كان سجناً فيكون جزء منا.. يتحول الى رصيد الخيال فنسميه الذكريات.. ام المكـــان الحقيقـــي هـــو الـــذي فيه احلامنا.. هو الذي فيه مانحب ومانعشق، نعترف بالمكان انه مكان لكونه الصندوق الذي يحمي تلك الجوهـــرة، المكان بدون احتواء الامنية هو خواء، صندوق بلا قيمة.. لكن المصيبة ان همّت صدفة عقيمة من اللؤلؤ.

انقـــسام همّت صنع مشاكل كثيرة كانت مشكلة توزع موارد الاغاثـــة في رأس القائمة. هنا تم تشكيل لجنة حياد تشرف على توزيع المـــواد الغذائية، لكن مشكلة المستشفى لم تحل. فالصريفة التي يقطنها بعض المتطوعين من الاطباء والممرضين الذين يتغيرون بين فترة واخرى، تقـــع في القـــسم الجنوبـــــي وبقي نقل المستشفى كل شهر الى احد الجهـــتين، حـــلا معلقاً. بينما شهر محرم يقترب والناس تتسأئل اذا اتى الـــشيخ القـــارئ من حوزة قم عند من يكون مجلس العزاء على الامام الحسين، في الطرف الجنوبـــي حيث الشيخ صالح او عند افليح وجماعته في القسم الشمالي؟!

هـــنا تـــدخلت اللجنة التي رأسها عباس وعساف بان يتم مجلس العزاء في الوسط فهذا ذكر الحسين ويجب ان يكون اساس وحدة وخير وليس تخاصم.

قلـــنا المسئلة حُلت وانتهت، لكننا لم نقدر طبيعتنا الانشقاقية خير تقدير.

اتـــى الشيخ القارئ من مدينة قم كان اسمه فاضل، رجل غاية في السمن مع عمامة صغيرة. يتحرك ببطأ ويتكلم كثيرا.

سئلتني الجدة برحية:

- اتى الشيخ؟

- نعم اتى

- يعني حلت البركة

و لم ادري بماذا اجيب.. هل تقصد من البركة هي العمامة؟!

موزاية اكبر زوجات افليح كانت كالعادة بكامل زينتها، هي امرأة بدينة بعض الشيء لكن لازالت تحتفظ بشيء من جمال القوام بسبب طولها. صدرها المتلئ يغري صقور السماء ان تهبط عليها وتتحول الى طيور بريئة، لموزاية عينان واسعتان ودائمتا الكحلة، مع شعر بني اللون تصر موزاية على اظهار خصل لامعة فوق غرتها. مع شفتان منفوختان باغراء دائم. لكن مايعكر جمالها حدتها الدائمة فكأنما هي لبوة جرحية.

البارحة تشاجرت مع زوجها افليح الذي كان يصر على الذهاب الى العراق لبيع ماجمعه من سلاح واخبار مهمة حول العراقيين في همت وتحركات المجاهدين في الهور. وبالطبع فانه سوف يعود جالباً العديد من العوائل المنكوبة مبتزا لها بمالغ باهضة مقابل ان يعبر بهم الحدود.

صاحت به موزاية:

- كافي مو كافي

- لا موكافي... باجر ايطيح صدام لو تتعب المعارضة وباب الرزق ينسد

- وللك يارزق هذا.. ولشوكت تلعب على الصوبين؟!

يبتسهم ويهتز جسده بضحكة مكتومة:

- ثوله.. ولج الكل يلعب.. مو الي مايلعب يلعب بيه.. حتى الله يلعب

- استغفر الله.. راح تقلبها بينا افليح

ولما يطول اهماله لها تمزه وتنظر بعينيه بحده ساعتها تدوي صفعة حادة: طاك..

تخفض رأسها، وتخاطبه بدون ان ترفعه

- بس فكر بولادك

- راحي كبر وصار رجال لازم يجي وياي.

تلفت مذعورة:

- جنيت.. اتخبلت خو ماتخبلت.. اتريد تذبح ابنك؟!

- كبر ولازم يتعلم

- شـــنو يـــتعلم.. يضحك على الناس ويخون الهور.. يخون الملح والماي (= الماء)؟!

- ياهـــور ولج.. الهور حاي تنشفه الحكومة ومابقه بيه شي حتى السمج راح ينبتله جناحين ويطير.

امسكت بيده متوسلة:

- انا اروح وياك بس عوف راحي.. عليك العباس.. عليك الله في الليلة بكت..

وجـــدت نفسي قريب منها.. قريب من ثراء هذا الجمال الصارم حد الدهشة.

قلت لها كيف تحبين رجل مثل افليح وتتحملين زواجه عليكِ

نظـــرت الي.. كان بياض عينيها الكبيران قد شقا بخط احمر بفعل البكاء وقالت:

كـــل عـــام تتساقط اوراق الشجر ثم تعود بتجدد الفصول، لكن الحـــب يـــورق في القلب مرة واحدة، واذا نضب تيبس القلب ومات الشخص بلا رجعة.

ولم يمضي افليح بلا ضجيج فقد احدث معركة أكثر اجراحاً. اذ في اللـــيل اجتمع الناس في وسط همّت بين القسم الشمالي والجنوبـــي لكن افليح قال ان صدر المجلس لنا

فـــرد عليه جماعة الشيخ صالح، مجلس اباعبدالله الحسين للجميع وليس للمصاقيط والسرسرية ولي مايعرفون الله

حاول الشيخ فاضل ان يفرض هيبته لكن عمامته سقطت.

وبعد الوتية والتي عاد المجلس، لكن المشكلة كبرت وزادت حينما تكلـــم الـــشيخ عن حرمة سرقة السلاح وبيعه وحرمة تعريض النفس للخطـــر بالغـــوص في مياه همت لستخراج الاسلحة الغارقة فيه والتي انفجرت اكثر من مرة وقتلت او بترت اعضاء الغواصين.

لم تكـــن معلومة جديدة فالكثير من المعدان يغوصون لجلب هذه القطع الغارقة باغراء من السلطات الايرانية التي وجدت حمقى يتطوعون لاجـــل مال بخس، فينفذون حملة نـــزع الاسلحة التي وقعت من طرفي الجيش العراقي والايراني التي دامت كثر من ثمانية اعوام.

امـــسك افليح بتلابيب الشيخ وصاح به احنه اريدك اتون وتنوح على الحسين مو تحجي بالفلوس.

قال له الشيخ فاضل مذعورا بس هذا حرام والامام الحسين عليه السلام، مايحب الحرام على مود شنو استشهد لعد؟

وعـــادت المعـــركة اشـــد حتى استحلفهم الشيخ فاضل ان ينهو الشجار كرامة للحسين الذي اهين مجلسه ويعتبر الجميع مسؤول وليس افلـــيح فقط. ووعد انه سيكتفي بقراءة الشعر الحزين فقط وليس هناك اية محاضرة. هكذا كان الشعر مراوغاً كذاباً اكثر درا للمنفعة من النثر والسرد.

وفي عجـــة تـــشابك الايدي والعصي، خرجت النساء فشاهدت وردة فلـــم اعد اسمع او ارى سواها. كأنما توقفت المعركة بظغطة زر فكانت مشهدا في التلفزيون. حتى النساء البقية لم يعد لهن حضور بتن جزء من سواد الليل. اخذت يدها ولأول مرة اراها تخجل مني. تطلعت

اليها فادركت نفسي.. لقد بت في طور الشباب، اخرجت لي من تحت عباءتها الفاخته

وجدتها مجروحة في عشها، يبدو ان احد الصبيان حاول اصطيادها.

– لهذا لم تأتين لزيارتي كل هذه المدة؟!

– لا.. ولكـــن امي منعتني.. خافت ان يحتجزني عمي فليح، او تنشب معركة بينك وبين اولاد عمي بسببي

ثم اضافة مرتعشة:

– امي تقول اني كبرت.. وانك انت ايضا صرت كبيرا

حدقت بـــي برموشها القاتلة، مع ابتسامة عريضة:

– هل اشتقت اليّ؟!

– كثيرا، قلت لها بلهفة

اردت ان اقول اشياء كثيرا لكن افليح صاح:

يلّه تعال نرجع للصريفة. قالها لي وغمز لعساف.

حينما عدنا لأقصى الجزء الشمالي من همت حيث صرايف فليح، لاحظت ان عساف يتبعنا من بعيد. وقبل ان نصل قال لي فليح اذهب ونام وعاد هو مسرعاً.

اخـــذتني الـــرية فتبعته من دون ان يشعر بعد ان سرت صوب الصريفة عدة امتار بم عدت بعدها.

كانا واقفين مثل بندقيتين قديمتين طويلتين.

– انـــا باجر (=غدا) راح انـــزل للعراق شنو عندك من معولمات جمعـــتها حول الناس اهنا اطنياها كي اسلمها للامن من اوصل. قالها افليح بصوته الخشن

– قـــبل الفجر مر عليّ ولاتنسى تترك كم بطل عرق لقوجانس والجماعة، رد عليه عساف.

فرك عساف يديه ثم تطلع بوجه افليح:

– ماقلت لي شنو راح اسوي ويه جواد؟!

ففز فليح كأنما قرصته عقرب:

– ويـــن اروح يعني.. هذا شغلك تعرف لي من جماعتك وين هو بالاهوار.. بقم.. بطهران. لازم اوصله.. لازم

– تره هناك معلومة تقول ان جواد واهله من حزب الدعوة، يعني مثله مثل عباس

– تقصد صديقك عباس؟!

– ولـــك ياصديقي يابطيخ.. انا اريده يسولف على مود نعرف بقـــيت جماعـــته وين فلتوا، يمكن كم واحد بيهم ابيران فنستفيد من ارسال اخباريات عنهم.

يضحك فليح:

– صدق انت بعثي نغل.

– وانت اكبر قواد.. وياك من ترجع اريدك ان تأتيني بقحبة رفيقة بعثـــية معدلـــه. هم نشبع بها نيج وهم اساعدنه على الشباب، مو مثل صاحبتك عزوزة خذت الولد وشردت بيه.

يمسك فليح بعساف ويهزه بعنف

– هـــاي زوجتي تفتهم.. وهي إمعمرها ماسمعه شنو يعني عفلق وحزب البعث، هاي بنت اصغيره.. بس ثولة

يرتجف عساف.. هاي اشبيك.. اهده لو تريدنه نتعارك.. خذاك الوهاس.. طربت كل يوم امسويلك عركة ويه واحد.

– انا راح امر عليك الفجر..

وهنا ظهر قوجانس وصاح:

– اجاي ايسوون

فذعر الاثنان وتناول فليح حجارة ورماها صوب قوجانس تنحى قوجانس بالقوت المناسب وهرب تاركاً سبابه يرن في عتمة الليل.

– ماتخلص منه مثل ماخلصنا من ابيه؟!، قالها فليح بحقد

– لا.. ماكو حاجة لقتله.. قتلة سوف يذكر الناس بابيه وسوف تنبش القصة من جديد

– يعني ابوه كان خطر الى هذا الحد؟!

– طـــبعاً اكـــبر خطـــر.. مسيحي ابطن الهور.. مسيحي يكّون معارضة من شيعة المعدان، سالفة حتى الشيطان مايفكر مثلها.

تمضي فترة من الصمت بعد ان هز فليح رأسه مرات عديدة وهو يقول ببلاهة: ها.. أها.. صدق والله!

فجأة يرتفع صوت عساف:

– من الهور بدء العراق ومن الهور يسقط.. تفتهم

فيجيبه عساف بذعر:

– لا ما افتهمت.. شنو يعني؟!

– لانـــك بـــالاول والاخير معيدي.. اترك السوالف الكبيرة لأهلها خليك ملتهي بطيازة نسوانك هنا، والف عافية عليك قحاب الحزب.

– ياقحاب؟!.. الله وكيلك...

وقبل ان يكمل افليح قسمه يجيبه عساف ضاحكاً:

– عبالك ماادري ولك.. الجماعة يأتون باخبارك اول باول، انت تحب النسوان اهواي، والجماعة بالحزب ماينسون خليون ابحضنك هل النسوان البيض المليانة.. روح ابو راجي الله ربك.

وبقـــت ضحكات عساف تعبر سكون الليل كأنها طلقات تخترق صدر الاعزل.

و لم اســـتطع تلـــك الليلة ان انام فانا جلست بعيدا عن صريفتي فكانت تأتيني آهات موزاية وهي تتقلب تحت فليح الذي اراد ان يترك وشماً تذكارياً الى ان يعود فيجدده مرة اخرى. لم ينقطع صوت موزاية الا حينما اتت ((وفية)) زوجة فليح الثانية، وصاحت انه قد آن دورها الان، لحظات وعلى صوت وفية هي الاخرى.

هكـــذا امتزجت ليليتي تلك بكفن الخيانة ورائحة الجنس فعاودني تلك الليلة الموحشة ذات الحلم القديم المتعلق بقوجانس.

* * *

لاحظت الاهتمام المتضاعف من قبل موزاية بابنها راجي حتى انها قالت لي ان اقترب منه اكثر لعله يكون عاقلا وليس مثل ابيه.

وفي الحقيقة اني وجدت راجي تغير كثيرا تجاهي خصوصا بعدما قـــتلتُ الحـــية التي اقتربت منه ذات يوم وكادت تقتله من دون ان يشعر بها. لقد تأملني كثيرا ذلك اليوم و لم يقل شكرا حتى مجيء اليوم التالي.

ذات يوم كنت مقبوض النفس وانا اتأمل حالتي.. غريب ووحيد ومصير مجهول.

جلس بقربـــي راجي واضع يده على كتفي:

– بماذا تفكر؟!

– باهلي

– لكن الجدة برحية اخبرتك بان الجيش قبض عليهم وابـــي فليح كـــان قد شاهد ذلك بعينه حينما كان يعبر الحدود في ذات الليلة من دون ان تنتبه او ينتبه الجيش.

– هذا مايقلقني.. قلتُ بتنهد وحسرة.

– لماذا؟!.. انت الان لم تعد يتيما حتى لو كان جيش صدام قتل اهلك، اصبحت كبيرا.. اليوم انت رجل. احمد الله ان جواد كان شاطر فحـــدف بعيدا بالزورق الذي كان يحملك ويحمل الاغراض التي كنتم تحملونها.

استغليت فرصة الصفاء هذه وتشجعت:

– راجي.. هل تزعل لو قلت لك ان بودي رؤية وردة؟!

سكت راجي

ثم لمحض وقال بوجه بشوش، خربته وجود ذبابة التصقت بوجهه:

– قم نذهب اليها سوية

ولما وجدني مندهش:

– سوف تفرح وردة حينما تعلم اننا اصبحنا اصدقاء.

ثم ابتسمت ابتسامة فاترة واكمل:

– او ان الصداقة بين المدينة الحضر وبين الهور المعدان مستحيلة؟!

ســـرنا جنبا الى جنب، وكأن التسامح يعطي للوجوه رونق آخر مـــثله مـــثل الحقد، لذا كانت وجوه الناس تستبشر وتبتسم ما ان ترانا رغم ان لاحد منا قال لهم اننا بتنا اصدقاء، هل تعلم الجميع لغة المعدان التي تقول بان الوجوه دفتر؟!

حتى وردة لم يسعها الفرح وقالت مباغتة قبل ان نحدثها:

– صرتما نمر واحد.

– يعـــني رايـــح ايعش بينا سمك؟!، اجبتها فضحك راجي وقبله ضحكت وردة

ســـلمت على الشيخ صالح وعلى الشيخ فاضل الذي كان يجالسه نازعا عمامته فبدت صلعة عظيمة. بينما فرت الزايرة ناظمية وحتظنتني ثم توقفت قليلا امام راجي وحتظنته ايضا وقالت:

– تعال خاله انشاء يرجع ابوك بالسلامة.. ((اشبيه الناس تتكاره يلعن العدو))

وبدوري تسائلت: لماذا الناس يتكارهون فعلا!

سئلت وردة:

– اين الفاختة؟!

فضحكت ثم اردفت:

– عـــبالي صرت رجال.. بعدك اصغير.. الفاختة طاب جرحها ورجعت للعش.

– يافاخته هاي؟!، سئل راجي

تطلعت اليّ وردة بحذر

فقلتُ لها: راجي الان واحد منا.

فالتفت الى راجي المقسوم وجهي بابتسامة عريضة:

– لقد وجدنا حمامة برية تعيش في همّت هل تصدق؟!

بعـــد ان اطعمتنا الزايرة ناظمية زبدا ملفوفا بالخبز، قال راجي اني ووردة معـــزومان على رحلة لصيد السمك في قارب ابيه الثاني القديم، ووافقت ببلاهة.

صـــعدنا الزورق الذي كان في الاصل زورقاً للجنود الايرانيين لا اعـــرف كيف تم الحصول عليه. لم يكن الزورق من الخشب بالطريقة المعروفة، كان مصنوع من مادة مخلوطة صبت في قوالب جاهزة.

كان الزورق يتأرجح بقوة فشعرت ببعض الخوف، ركبنا راجي في الامام وانا بقربه وفي طرف الزورق الثاني تجلس وردة.

شيئا فشيئا اخذت همت تغيب.. اخذت الصرايف تختفي.. والمياه تـــزحف امامـــنا.. القـــصب يزحف ايضاً.. وكنا نتقدم صوب لعبة مفخخة.

– ماذا سيبقى من الوطن اذا تم تجفيف الهور؟!، سئلت وردة

– تبقى المدينة. اجاب راجي

– مدينة بلا طبيعة.. اتريدنا ندخل المدينة ونحن ندوس على جثة الهور؟!

قالـــتها وردة وهـــي تشمر بذوابتها الطويلة وراء ظهرها بعدما كانت تلعب بها.

– يعـــني اذا فرغوا الوطن من الهور والقصب، قابل راح ايفرغونه من الاغاني؟!!

قالها راجي وضحك ضحكة مصطنعة.

– لافـــرق بين الهور والاغنية.. الا اذا قصدت من الاغاني اغاني خرى غير عراقية.

اجابته وردة بحدة.

ثم صمت كلاهما وبقينا نتطلع الى الماء باشتهاء اجوف.

كانت اماكن عديدة ملوثة ببقايا معدات الحرب، فزفرتُ زفرت القتيل.

اقتـــربت مني وردة فنبض الحنين بين ذراعي كأنما احمل بين يدي طفل وليد.

اخرج راجي العصا الطويلة التي يدفع بها الزورق وصرخ بي:

– وانت اليس لك رأي.. ام ان لك احلاماً اخرى؟!

– اذكـــر ان الجـــدة برحية كانت تقول بعض الاحيان: احلامي بالماء يأكلها الصيادون

يطلق راجي صفيرا عالياً وطويلا:

– .. الله.. الله.. هـــاي شنو صرت تحجي اكبار.. يعني شنو ما افتهمت؟!

– كـــل قذائف جيوش صدام وحزب عفلق ما كُدرت تفرق بين الطير ونخلته، مو هذا الي ردت تقوله؟!، تسئل وردة

احببت تلك الدهشة السعيدة التي تفيض من عين وردة، فاكتفيت بالسكوت.

ركن راجي الزورق الى دكة طافية في الماء، هي حديد شبه رباعي الـــشكل تم تثبـــيت الفين به من تحت كي يطفو، هذا الشيء الغريب محتمل انه عبارات او جسور مؤقته للجند ايام الحرب العراقية الايرانية.

– ياالله قم..

ولما لاحظ راجي استغرابي

– لقد جعنا وعلينا ان نأكل شيئا

– اعطـــني كيس الطحين كي اصنع لكم خبزا، لكن حتى الان لم نستطد اي شيء، قالت وردة.

– اسمع صوت طيور خلف هذه الكومة من القصب، انـــزلا هنا وسوف أتي بها منحنية الرقاب.

ترجلت وردة عن الزورق فرتفع ثوبها وبان ذلك البياض العاجي الشهي.

بدأت بتكسير القصب الذي تطاله يدي، واشعلت النار، والتهت وردة بعجـــن الطحـــين وبين الحين والاخر يرمق كلانا الى راجي وهو يدفـــع الـــزورق بحذر داخل بعدها غاب وبقيت وردة تحني النار بقطع العجين التي ارتفعت منه رائحة الخبز فتذكر جسدي ان هناك ثمة معدة وليس قلب فقط.

دوت اطلاقـــات نـــار وتردد صوتها في الفضاء صاحبتها رفرفة اجنحة تحتمي بالسماء، ومخلوقات في الماء راحت تتحرك بسرعة الخوف والحذر.. لا شيء في الكون يطيق صوت السلاح سوى الانسان.

اكلنا طيور الحضيري ودجاجة الماء، كانت هزيلة جائعة، لقد بات الهور فقيرا بعد عمليات التجفيف المستمرة من قبل حكومة العفالقة.

ولم نستمتع بالاستلقاء وبعض الراحة حتى سمعنا قصباً يتكسر وصوت يشبه الهمهمة، صاح راجي: خنزير

ولم تكتمل الصيحة والا والخنزير يدنفع صوبنا قافزا من كومة القصب الى العبارة التي نحن فوقها، كان كبيرا وغاضباً خمط راجي بندقيته بعجل اطلق النار: طا.. طا

انذعر الخنزير، لكنه اكمل طريقه اذ هو لايستطيع الدوران والا فسوف يسقط في الماء، كان راجي امامه تماما، احنى الخنزير رأسه وضرب راجي، ارتفع راجي في الهواء وصرخ وختلط صوته بصوت وردة التي صرخت وفقدت رشدها.. صاحت بي:

خذ البندقية (التي سقطت قريبا مني)

- خذ البندقية، صرخت وردة مرة اخرى

تلبكتُ.. اخذت البندقية واخذت اطلق النار.. كانت البندقية تمز كتفي فتخطأ الخنزير.. ترك الخنزير راجي واخذ يندفع صوبي تشنجت اصابعي على الزناد واخذ الرصاص ينتفظ من فوهة البندقية.. صرخ الخنزير.. سقط وانا مستمر باطلاق النار الى ان انتهت مخزن الرصاص.

هرولت وردة الى راجي الذي كان سابحاً بدمه ممزق الملابس، وضعته بصعوبة في الزورق:

- انا لا اجيد دفع الزورق ولا اعرف الطريق، قلتُ

- لا عليك انا اعرف الطريق فقط حاول ان تدفع المردي (=عصا جد طويلة)

كانـــت وردة شـــبه ترتجف وعيونها لاتنغلق ولاترمش، وراجي لايتحرك ولايصدر منه اي صوت.

– انت بطيء.. الزورق يحتاج الى قوة اكبر، قالت وردة

كنت ابذل كل جهدي لكن سريعا ماتعبت، وكلما اشارت قواي نظرت الى راجي فاستعيد نشاطي.

– هل تسمع..؟!، قالت وردة

– نعم اسمع.. هناك صوت ماكنة زورق حديث

– لعله احد زوارق المجاهدين او احد قوى المعارضة، قالت وردة

– ماذا افعل، الصياح اضعف من صوت ماطور الزورق؟!

ومـــن دون كـــلام اخـــذت وردة البندقية واخذت تطلق النار، واستغربت انها لاتهتز

ســـكت صـــوت محرك الزورق.. اخذنا نصرخ بقوة، بعد دقائق وجدنا انفسنا محاطين برجال قوى المعارضة.. الذين يقطنون في اماكن في الهور تسمى بـــ المقرات.

قـــال لنا احد الشبان ان الزورق محمل بامور مهمة لايستطيعون التفـــريط بها، لذا عليهم ان يبقوا واحد منا مع الزورق وفي الغد يعدون اليه، قلت لهم خذو راجي ووردة وانا سوف ابقى هنا.

صرخت وردة: انا اكبر منك، وانت ابن مدينة.

ضحك الشاب وقال لها لاتخافي، كلامه صحيح هو رجال وانت امرأة لايجوز ان تبقي وحيدة.

حمـــل الرجال راجي، وصعدت معهم ووردة حيث بقيت تلتفت نحوي الى ان اختفى الزورق الحربـــي، بينما انا عدت الى ذات العبارة الـــتي تغدينا فوقها. وهكذا قضيت يومين كاملين اشكر فيهما اولئك المقاتلـــون الذين منحوني بعض المعلبات الغذائية وابقو لي بندقية راجي

معـــي. اخذت الوحشة، وشعرت كم قاسية هي الوحدة. يومان قفزا بعمـــري آلفا من السنوات، في الوحدة تعلمت ان امشي داخل نفسي فتفاجأة بوجود كل تلك الشوارع والطرق والعوالم المختبأة بداخلي.. فبقيت اتجول هناك لايوقظني سوى رفرفة جناح طائر او نقيق ضفادع او حشرات مجهولة.

هكذا غفى الضوء ونعست الشمس واخذ الظلام يهبط مثل حلم كئـــيب يخـــيم فوق القبور. وفي تلك الليلتين عاودني الحلم بقوجانس مرات عديدة:

{كانـــت ذات الفاخته التي نحرسها ونحميها انا ووردة.. اقتربت مني، كان بها جرح لم ينقطع نـــزفه.. اقتربت.. اقتربت فمددت يدي الـــيها.. ولمـــا اقتربت تحولت الى رجل يرتدي عمامة غريبة وملابس سوداء ثم بسط يديه وقال بصوت ملئه الخشوع:

قل لقوجانس انت قلب حكاري العصية.

ثم امـــسك بخاصـــرته وصرخ متوجعا واخذ يتهاوى فبان صليب معلق برقبته. بعدها عاد اللون البنفسجي بالظهور لكن ثمة شيء خالطه فتحول الى لون دم اسود دبق سرعان ما جرف الرجل الغريب، فاخذ يصرخ بي: قل لوجانس انت قلب حكاري العصية. }

كلمـــا غفوت يتكرر الحلم نفسه فاكرر ذات الصراخ المجروح، حتى ان الطيور ومخوقات الهور، تصايحت من صراخي وبالتأكيد صبت عليّ سيلا من الشتائم بلغاتها المختلفة.

ولأول مـــرة اشعر بحنين طاغ الى عائلتي خصوصا الى امي وأختي الـــصغيرتين، واخـــذ الخيال يصور لي كيف اخذهم الجيش الصدامي وعذبهم وقتلهم، حيث امي تصرخ، والصغيراتان مندهشتان من رجال يقومون بدفنهم احياء... اهتز بدني وبكيت.

هكـــذا انتهـــيت وحـــيدا.. وحدة بدايتها الهلع وانتهائها مابعد الجـــنون.. هي وحشة الوحيد داخل الهور.. داخل الاسطورة.. وحدة الاله الذي نصفه براءة ونصفه وحش

امـــام المـــاء كنت اهز نهاري الناشف من الناس والكلام واعلقه بحـــائط الغـــد الغائب الاتي، واقول عساه يأتي مختلفاً فيأتي متشابها مثل الامس.. مثل جميع الايام السالفة بلا فرق.

اشد الاشياء عليّ كانت الوحشة في الليل، وعدم الحرية في النهار. كنت خائف ان تحركت ان اتيه فلا يعثرون عليّ اذاما عادوا.

ما ان يعم الظلام حتى تبدو رؤوس القصب مثل انياب ذئاب سود تترقبني في المكان. حتى الماء يتحول الى وجود اسطوري اترقبه بين الحين والاخر ينفجر ويخرج منه مارد مرعب.

لم اصـــدق سماع صوت محرك الزورق الذي كان بالنسبة لي صوت الوحي والنبوءة باستمرار الحياة مرة اخرى، بعد انقطاع دام آلاف السنين.

كـــان الذي يقود الزورق ذات الشاب الذي تحدث معي يرافقه شخص آخر كان معهم يضاً، رجل بالخمسين من عمره.

ابتسم كلاهما حينما شاهداني، صعدت الزورق وعاد الدم يجري في عروقي مرة اخرى وانا اتلقى بوجهي ضربات الهواء الباردة التي تأتينا بفعل سرعة الزورق.

– انا اسمي ابو رسول، وهذا ابو كاظم، وانت ابو منوا؟!

استغربت من السؤال:

– انا غير متزوج

ضحك كلاهما:

– الـــذي في المعارضة يجب ان يكون بلا اسم، لابدان يكون لك كنية مستعارة كي تحتمي منها من جواسيس صدام.

ثم ابتسم ابو رسول، واكمل:

- علـــى اية حال نحن نعرف اسمك، ولا تقل منين عرفتوا، هاي اختك او بنت عمك الحلوة، شلعت قلوبنا شلع، وهي تحرصّ علينا ان نرجع لك.

- شكرا، قلتُ لهما

- باين انك ولد ابن نعمة وناس وهواي مؤدب، بارك الله بيك، قال ابو كاظم، الذي كان ممسكا بالرشاش الطويل الضخم المحمول في مقدمة الزورق، والذي يسمونه بـــ البكته.

- انتم مجاهدوا الهور عمي؟! سئلتُ

- نعـــم.. احـــنا اريـــد ارجع مياه الهور واسقاط حكومة اولاد الخنازير.. البعثية العفالقة هذول، قالها ابو كاظم.

- وانت اهلك بِمَيّت؟!، سئل ابو رسول

- لا.. اهلي قبض عليهم الجيش ونحن نعبر الحدود.

- لوحدك في هِمّت الان؟!، سئل ابو كاظم

ولا ادري كيف قلت ذلك:

- لا عمي وياي وردة

ابتسم ابو رسول الذي كان في بداية الثلاثين من العمر وقال:

- يعـــني هـــاي زوجـــتك.. خطيبتك.. بعدك صغير على هاي السوالف؟!

و لم ادري مـــاذا اقول. بينما اخذ كلا من ابو رسول وابو كاظم يتبادلان النظرات ويتسمان.

وصلنا الى هِمّت قبل الغروب بساعتين، هرولت صوب الصريفة- المستشفى، فوجدت موزاية وناظمية والشيخ صالح، بقرب راجي الذي كان هامداً لايتحرك منه سوى صدره.

لما رمقتني موزاية بعنيها الواسعتين، شعرت بالذنب والتقصير:

- اعذريني

- انـــت عملـــت الذي عليك.. مشكور ماقصرت، قالت لي موزاية

- عجيبة هي الحياة، لما كان راجي شراني بقي سالماً ولما لان قلبه قـــست عليه الحياة، قال الشيخ صالح وضرب على فخذه فعلى صوت: طراب

هنا على بكاء موزاية:

- اويلي عليك يمه.. ماراح تزوج بعد.. ماراح اصير عريس.

افـــتقدت وردة لكني خجلت و لم اسئل عليها في ظل هذا الحال. وكأن ناظمية التي الحت علي ان اصابني ضرر او مكروه، او اني جائع، كأن ناظمية شعرت بحراجة موقفي فقالت لي:

- اذهب الى عش الفاخته، وردة يومين وهي اتروح الى هناك من الصباح الى الغروب، تقول انها تنتظرك؟!

غالبت نفسي ان لا ابتسم، وخرجت مهرولا.

وهناك وجدتها تحدث الفاخته:

- نـــذر علـــيّ لو رجع سالم، اخبزلكِ خبز مع خضار مخصوص لكِ.. بس قولي آمين.

كانت تنود بظهرها وتتمايل ويديها بحضنها.

- آمين.. قلتها بصوت عال

فنهـــضت وردة وطوقـــتني يديها بقوة. ولاول مرة انتبه اني بت اطـــول منها حتى ان رموش يعينها المبللة كانت تدغدغ شعيرات بدين يزبغن من صدري و لم يسبق لي ان انتبهت لها.

- انت مجنون.. اكبر امخبل، قالتها وردة وهي تمسح دموعها.

- انـــتِ لكِ قلبين (اردتُ ان اقول قلب أم وحبيبة، لكني كنت اقل شجاعة)

- الهور باليل موحش.. وبيه جنيات

ضحكتُ واكملت لها:

- حـــوريات قصدكِ.. حوريات امكِ الي تقصها للنساء، صارت حقيقة.

- هي حقيقة ونص

- طبعا في الساعة الحرجة الاوهام اقوى من الواقع.

ابتسمت وردة وقالت:

- مادام بعدك اتخربط هشكل، معناه مابيك شي، يالله تعال.

- وين؟!... خلينا هنا نستمتع بالغروب وبعيون الفاخته

- لاتخليني ازاعل مع هاي الحماحة..

ثم سحبتني من يدي وقالت:

- لا امـــشي سلم على قوجانس، المسكين من غبنا الى الان ذايح نفسه بالبكاء.

- هاي انت وين ياملعون؟!!

احتظنني قوجانس الذي زادت بدانته واشدت حمرت بشرته اكثر. شعرت به يخنقني لشدة ما اعتصرني. تخلصت منه بصعوبة.

- انت ما تحجي

- لا تقول هيج قوجانس

- تـــضحك عليّ.. لو تحبوني كان اخذتوني وياكم آكل دجاج الماي

- هاي اشعرفك قوجانس

- وردة حجت كلشي، قالها قوجانس وهو يهز رأسه

– يعـــني اتـــريد تتقاســـم ويانا دجاج الماي وما تقاسمنا مشكلة الخنـــزير؟!

– يعني ليش ما جبتوه الخنـــزير ناكله

– هـــاي شنو قوجانس.. الخنـــزير ماينكول حرام، ردت عليه وردة

– ليش لا.. الذي يأكلنا ناكله.. هيج تكول الزايرة ناظمية.. انا بنفسي سمعتها تقول وتكرر هذا الكلام.

فضحكنا وطال ضحكنا كأننا نكتشف لذة الفرح لأول مرة.

* * *

كـــان ابو غيث وزوجته الدجالة بقرب راجي يقرأون تعويذاتهم ويبخرونه فيما وضعت ام غيث قطع ملابس ملفوفة تحت رأس راجي، قالت انها وضعت فيها عمل مخصوص.

مـــوزاية هي التي جلبت ام غيث الذي لايكف عن استراق النظر الى وجه موزاية البرونـــزي بشفتيها اللتان لاتغتسلان من مادة المكياج الغامقة اللون.

اخيرا اتى عساف وقال ان السيارة تنتظر عند طرف همّت قرب الثكـــنة الايـــرانية للحراسة كي يأخذوا راجي الى اقرب مستشفى في الاهواز.

وقـــد كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة لي لا اقل ان موزاية لم تذهب مع ابنها وانما ذهب اخواه معه.

– اخاف اصير بعيدة عن ماء الهور، قالت موزاية

وقـــد خطرت لي فكرة ان المعدان نوع من انواع السمك. او (وهنا خفت قليلا) ان تكون موزاية احدى الحوريات التي تتحدث

عنها الزايرة ناظمية. الحوريات التي يعيشن في مملكة الهور العاطسة، واللاتي يخرج بعضهن الى سطح الماء فيقعن ضحية اغراء احد العفاريت الذين يتشكلون بهيأت شاب جميل وما ان يضاجعها حتى تفقد قدرة العودة الى مملكة الاعماق وتعيش امراة عادية في دنيا الظاهر.

فليح يشبه المارد الشرير ليش لا، هكذا همست لنفسي بحذر.

ودعنا راجي واخويه واحسان الذي توسل ان يأخذوه معهم وكان يتلوى ويقول ان يشعر انه سوف يموت. فقبلوا على مضض لان الطريق طويل والمكان ضيق.

ثم عدنا القهقرى وفي منتصف الدرب وجدنا ابا شمس يركض لاهثا:

- ابن النعال ماشفتوه

- من تقصد؟!، قلت له

- أحسان... احسان سرق الببغاء مالتي وهرب.

- نعم رأيناه.. كان منحني على بطنه ويعتصر ويقول انه مريض، اجابته وردة

- آخ مريض.. يامريض.. ابن الطحال بواك.. سرق الطير

كان يتكلم ويعض على اصابعه

- تلكم مع ابي غيث هو غريمك الان، قال له الشيخ صالح.

لم يجب ابو شمس، لكنه هرول راكضا بعدما رفع طرف دشداشته (ثوب طويل يرتديه اهل العراق ودول الخليج يشبه مايرتديه الصعايدة في مصر).

في الليل اجتمع الجميع لمقاضاة ابو شمس وابو غيث. وانتهى الامر بان اعطى ابو غيث مئة الف تومان (=عملة ايرانية).

لكن ابو غيث لم يترك ابو شمس ينام، اذ بقي يسامره حتى الصباح ويسئله عن حكاية عظم الببغاء وعما يعرفه من معلومات حول علم الحروف. وقد استغرب ابو غيث كيف لايستغل ابو شمس معلوماته في ابتزاز الاموال فالمعدان الان اثرياء فهم يجلبون السمك ويبعونه على العوائل التي تأتي فارة الى همت.

خصوصا وان:

- استغلال الميعدي مو حرام.

ولما شاهد ابو غيث دهشة ابو شمس، اكمل له القول بحماس:

- اي نعم مو حرام يبو شمس ياخوي

الميعدي لايبني ولايشتري.. همه بطنه وشوية سكائر.. احنا احق بالمال.. ثم تعال اقول لك:

- الميعدي يستغل الناس.. همّت سجن بلا سجان ومابيها طعام...

نحن ايضا يجب ان نستغل المعدان اذن اموالنا عادة الينا.

بقي ابو شمس مترددا، فباغته ابو غيث بالضربة القاضية:

- تعال افهمك ياخوي ابو شمس

انا ويـاك مو طلابين دنيا.. انا وانت نحتاج الى كتب السحر وكتب السحر والجفر وعلم الحروف والجن تحتاج مال.. يرادلها افلوس.

ابتسم ابو شمس، فشعر ابو غيث بالغبطة والانتصار.

اما بالنسبة لي فشعرت بالراحة لرحيل احسان. فهو كان دائم التحديق بوردة وقد اوصيت قوجانس ان يشج له رأسه بحجر حيث اخبرتني وردة انها هددت احسان فيما لو حاول ان يتحرش بها مرة اخرى، فلعمت انه تجاوز حدودة هذه المرة اكثر من المرات السابقة.

وكنت خائف ان ضربته ان يكذب احسان كذبه وينـــزل غضب افليح عليّ، فافليح يؤمن بعائلة الدجل هذه خصوصا وان احسان يقول بـــانهم سادة رغم ان اخته الثانية سوف تأتي مع زوجها عبدالله وتحلف بان اخيها يكذب وانهم نسبهم لايعود للنبـــي ولا لأحد احفاده الائمة الاثنى عشر.

عندها ذهبت لقوجانس وقلت له انا حزين:

- ليش حزين.. جوعان

- لا قـــوجانس.. بـــس انا حزين لان احسان.. احسان الطويل اتعرفه؟!

- اي.. اي.. اعرفه

- يعايـــرني ويقـــول لي: انت غريب وما لك احد مثل قوجانس المخبل المجنون.

اهتز قوجانس.. جحظت عيناه

- ابربك هو يقول هذا الكلام

- شنو ماصدقني قوجانس؟!

تـــناول قوجانس اقرب حجر وهرول وفي الليل في صريفة عباس وعساف شاهدت احسان معصوب الرأس يتوجع.

بعـــد اسبوع من رحيل احسان قالت لي الحاجة ناظمية ان اخت احسان واسمها رحيمة تقول ان احسان زارها ذلك اليوم وبات عندهم لاول مـــرة مـــنذ مجيئها الى هِمّت ولما رحل اكتشفت انه سرق ذهبها وذهب بنانها الاربع وهرب.

كانت ((رحيمة)) تبكي وتقول ان اباغيث هذا تزوج اختها وحولها الى دجالـــة وتم طـــردهم من المنطقة والحي الذي ولدوا وعاشوا به. وان احـــسان لحق بهم لكونه لايحب العمل وراقت له فكرة الشعوذة خصوصا

وان هـــناك شـــابات يأتين لطلب التعاويذ فيحاول احسان اغرائهن شيئا وشيئا ونجح مع كثيرات. وذات يوم اتت سيدة كبيرة معها فتاة مثل القمر كانت من نساء بني رماح. ولما حاول احسان معها سكتت و لم تجبه لكن بعـــد ساعتين كان عمومتها يطلبون بدمه هرب احسان وهرب ابو غيث معـــه الى كربلاء. واختفت اخبارهم ولابد من حصول فضيحة اخرى هي التي جعلت احسان وابوغيث يفرون الى ايران الان.

بقـــيت الزايرة ناظمية اياماً تعيد حكاية رحيمة هذه وتتعوذ من مغـــادرة الهور كي لاتتحول الروح الى مسخ، فحتى العباس بن ابـــي طالب.. العباس ابو فاضل صار وسيلة تكسب.

ولما قلت لها بان ليس جميع من في المدينة اشرار قالت ناظمية:

– الي يمسح ايده بالتنور يصخم.

ضـــحكتُ وقلـــتُ لهـــا التنور في المدينة يعمل على الغاز وليس الحطب، وهو ليس فيه رماد تتسخ الايدي منه.

بحلقت بـــي الزايرة ناظمية وقالت:

نار وماتخلف رماد.. هذه جهنم.

* * *

جـــن جنون فليح لما رأى ان همّت عادت مثلما كانت في غيابه ثم انـــتفض حيـــنما سمع حكاية راجي امسكني من اذني وضرب بـــي الارض وعبثا حاولت تسديد ضربة له، كانت له قوة الف ثور فصدقت في تلك الظهيرة ان فليح مارد حقيقي.

– ابن عمك ينهب زوجتي وانت تقتل ابني.. منو دازك عليّ منو؟!

في آخـــر ارتطـــام لي بالارض سمعت صوت سحب مفتاح مخزن الرصاص، اقترب مني فليح وعصر فوهة البندقية برأسي.

ولاول مرة تتحرك الجدة برحية، اخذت البندقية منه ودوى صوتها مثل العاصفة:

- اتـــرك الولد.. ماله ذنب، لولاه هو ووردة كان ابنك مات.. اعقل واشكر الله.

حـــدق فيلح بالجدة وقال: انا سوف اخرج ولا اريد هذا الكلب في بيتي ولا في القسم الشمالي.. اعيدوه لناظمية.

كانت وردة تحدثني، ولا افهم ما تقول.. ناظمية تدقدق باغراض واشـــياء ولا اعـــي ماذا تصنع، لقد صيطر الالم علي خصوصا ساقي وخاصرتي حيث اكتفى الدكتور ابراهيم في الصريفة- المستشفى بالقول ان جسدي به رضوض عديدة وليس لدينا سوى المهدءات.

الوحيد الذي كان يريد ان ينتقم لي بجد فيمسكه الشيخ صالح ان يتحرك هو قوجانس المسكين.

وفي تلـــك الليلة عدت اراه مرة اخرى.. ذاته ذات المنام والحلم والرؤيا كانه شريط مسجل يتم اعادته لا غير:

انفلـــق الافـــق عن سائل بنفسجي كان يقترب مثل جاحفل من الجـــيش، ثم اخذ ينبسط على الكون كنسر خرافي عملاق، اخذ اللون البنفسجي يقترب ويقترب، شعرت نفسي امام طوفان اخذت اصرخ، ولا احـــد يسمع... فجأت اخذ اللون البنفسجي يتقلص ويصغر شيئا فـــشيئا، اتخـــذ شكل شراع فزورق صغير ثم خفق وتحول الى حمامة.. كانت ذات الفاخته التي نحرسها ونحميها انا ووردة.. اقتربت مني، كان بها جرح لم ينقطع نـــزفه.. اقتربت.. اقتربت فمددت يدي اليها.. ولما اقتربت تحولت الى رجل يرتدي عمامة غريبة وملابس سوداء ثم بسط يديه وقال بصوت ملئه الخشوع:

قل لقوجانس انت قلب حكاري العصية.

ثم امـــسك بخاصـــرته وصرخ متوجعا واخذ يتهاوى فبان صليب معلق برقبته. بعدها عاد اللون البنفسجي بالظهور لكن ثمة شيء خالطه فتحول الى لون دم اسود دبق سرعان ما جرف الرجل الغريب، فاخذ يصرخ بي:

قل لوجانس انت قلب حكاري العصية.

فـــزرت وانا اصرخ قوجانس، فهب المسكين.. كان يحدق بـــي وعيونه تنبع بالدمع

اسندني الشيخ الصالح:

- انت تعذب نفسك

فلم اكترث لقوله.. امسكت بياقة قوجانس:

- قوجانس من انت.. قل لي.. ماذا تعني كلمة حكاري ها؟!

تجمـــدت عيون قوجانس، احتظني واخذ يبكي ويبكي و لم اعد اميـــز هل انا الذي يتألم ويبكي قوجانس، ام ان الموجوع هو قوجانس والباكي انا

في الصباح سقتني وردة حساءاً مصنوع من الطماطم والبصل ولما ســـئلتها عن المصدر قالت ان موزاية بعثت له حيث ان فليح جلب معه من العراق.

لكن ثمة هناك ضيق.. ضيق في صدري وفي الوجوه.. حتى همّت بدت اصغر والسماء قريبة بشكل لاتدع مجالا للتنفس.

امـــران شـــغلا الناس في همت: الاول هو وصول باصات الامم المـــتحدة والثانية العائلة التي اتت مع فليح. كانت العائلة مكونة من ام وثلاث بنات لاتعرف من الاجمل الام ام احدى البنات.

الام ماجـــدة، شقراء شبه بدينة مع كرش صغير يدفع ثوبها الضيق من الامام بينما يحاول ردفاها التملص من الخلف.

وابنـــتها وداد شقراء مثلها ذات عيون زرق تشبه المغنية الامريكية كرستينا الآوغيرا، لكن مع صدر اضخم واكثر اغراءا.

امـــا الاختان سهاد وسهام، فكانتا تحملان شعرا بنيا ووجه مدور بشفتين ممتلئتين برغبة وتطلع.

بات الرجال في الايام الاولى يبحثون عن انفسهم في رابعة النهار فـــلا يعثرون عليها. بيد ان وصول سيارات الامم المتحدة حرك رماد اليأس فتوقد الامل الغابق في النفوس.. اليأس هو الموت،

والامل مهما كان ظئيلا هو الذي يدفع الرئتين الى التنفس، كان الخروج من همتّ هو الخروج من المجهول، الانفلات من مملكة السديم بـــين الوجـــود والعدم، والتطلع الى التخلص من كوابس الهروب من شرطة صدام وجيوشه، تلك الكوابيس التي تتكرر مثل وجبات الطعام التي لاتنتهي فيتغذى الوهم ويكبر الهم ويتفرع.

ومـــع مـــضي الايام بدت شخصية ماجدة الحلوه تتكشف، مثل شاخص تتطلع عليه وسط الضباب الذي ينحسر شيئا فشيئا بفعل شمس الـــصباح. هكـــذا بـــات اسمها ماجدة الحلوه، فهي حلوة لكن كثيرة المـــشاكل، تـــصنعها صنعاً فاذا ما عاتبها احد تقول: المشاكل احسن طريقة للانتظار.. صنع المشاكل يعين على الصبر.

فمثلا: كانت ماجدة تحرص ان يتم نقلها الى القسم الشمالي، لماذا الشمالي؟!

– هيج بلا سبب لأني من بغداد ولازم ما اعيش بالجنوب، اخاف على سمعتي واصير اشروقية

– ياعمـــي.. الله يهـــديك.. ياشمال ياجنوب، انت الان خارج العراق، مو عيب انشيل هاي العقلية البائخة ونفتر بيها بين الدول؟!

– لا.. انا ما اسكن بالجنوب ولو على قطع رقبتي

ولم تفلح جميع المناقشات وتوسلات الشيخ صالح، حتى جاء عساف وقال: خلاص راح انسمي القسم الجنوبي من همت بالشمالي والشمالي بالجنوبي، بس خلصينه عاد.

واذا كانت الاختان سهاد وسهام دائمتا الحركة والبهجة والمشاكسة، بينما اختهما وداد ساكنة ببهاء مثل الشمس. حتى ان الزايرة ناظمية باتت تسميها: تمثال النور. ولم تغب عن وردة نظراتي لوداد، حتى انها قرصتني بقوة ذات يوم وهددتني بان تذبح الفاخته اذا امسكت بي انظر الى وداد بتلك الطريقة. لم تكن وردة وحدها تغار من وداد جميع البنات شعرن بالمنافسة، حتى النساء الكبيرات، وفي احد المرات كانت الزايرة ناظمية صافنة فقلت لها: خير مابك زايرة؟!

فاجابت بدون ان تتحرك عينيها: يمكن وداد حورية هور هاربة وهاهي تعود وتفكر بالانتقام.

وجدت الكلام اشبه بالهذيان فتركتها. لكن الايام لاتسعف احدا في البراءة، فلا يمر اسبوع الا وتحدث مشادة بين الشبان بسبب المنافسة على ماجدة وبناتها. عند ماجدة تجد الشبان يختلقون فتسامرهم هي وبناتها وتتحفهم بغمزات واشارات.

وكنت ساكون صريع صداع بين وردتي القديمة المحصنة وبين هذه الباقة المستباحة لولا ظهور زيدون في همت.

زيدون طفل عمره ست سنوات معجزة من الذكاء والحيوية انجبته امه ثريا من رجل عجوز بعمر ابيها بعد ان تم تطليقها مرتين بتهمت انها لاتنجب. هرب بها زوجها بعد اسودت الحياة بسبب الحصار الاقتصادي الدولي على العراق اثر دخول قوات صدام حسين على الكويت. كان عليه ان يعمل من الصباح وحتى الثانية عشر ظهرا كمعلم ومن ثم كحمال في السوق رغم كبر سنه.

بعد يوم واحد من وصولهم همت وجدت الصغير زيدون يضرب على جبهته ويبكي:

مابك

- ...

- اقول لك مابك تكلم

نشق وزفر:

- ماذا اقول لقد ضاع مستقبلي..

- لماذا

- امـــي تقـــول لاتوجد مدرسة في هِمّت.. اقول لك لقد ضاع مستقبلي

فاجـــأني ان اجد طفلا بعمر الست سنوات يقول ان مستقبله ضـــاع بينما جميع الكبار كل همتهم هو وجود مكان آخر فيه خبز افضل.

لكـــن مالم يستطع فعله الكبار فعله الصغير زيدون، فامام نواحه المتواصل وادائه الذي يشبه اداء مسرحي لممثل واحد، وهو يضرب على جبهته ويقول: ضاع مستقبلي، فتضحك النساء ثم يبكي الرجال. ظهر مـــن كـــان مختبئا تحت وطأ الهزيمة والشعور بالاختلاف. ظهر الاستاذ حـــسين مدرس الرياضيات والاستاذ علي مدرس اللغة العربية والمعلمة صـــبرية، تشكلت لهم صريغة صغيرة اكتضت بالاطفال الذين احذت ايديهم ترفرف من الفرح كأجنحة الطيور ترفرف امام شمس الصباح.

بالطـــبع لم يتـــرك الملـــتحون الصغار لوحدهم يقاومون الطبيعة ويزهـــرون بطريقة طبيعية. فكان اول اعتراض هو ضرورة اضافة درس لتعلـــيم الصغار الصلاة وشيء من العقائد. وقد امضى الاستاذ حسين شجارات عدة وهو يصيح بان الاطفال في وضع سيء وهم لايحتملون

كـــل ســـاعات الجلوس هذه، و لم يصدق ابو صباح اذنيه حينما قال الاستاذ حسين ان اللعب انفع للاطفال من تعليمهم الفقه والعقائد

– كافر.. تريد تعلم الاطفال على الفسوق، قال ابو صباح

– يافسوق.. الفسق صفة للبالغين حينما يرتكبون الحرام وهولاء اطفال.

– تريد ان تعلمني الفقه يامعلم الرياضيات

– تستهزء بالرياضيات وهي سيدة العلوم

جـــن جـــنون ابو صباح وزملائه في الخيمة الزرقاء ابو مريم وابو هدى واتباعهم، وحمّرت عيونه ورتجفت اطرافه:

– تقول الرياضيات سيدة العلوم يامغفل ياجاهل.. الفقه هو سيد العلـــوم.. الـــيس الانبياء هم افضل البشر لو كانت الرياضيات سيدة العلوم لعلم الانبياء والائمة الرياضيات وليس الفقه

يخلع الاستاذ حسين عويناته ويفتح فمه بذهول:

– معقول انكم تفكرون بهذه الطريقة.. ياعمي الناس لاتختلف في الرياضـــيات لانهـــا بديهية، مشكلة الناس في القانون نظريا، والسلوك الاخلاقي عمليا، لذا كانت هناك حاجة للمصلحين.

يعم الصمت قصير سوف يتقدم الرجال للصريفة الصغيرة التي هي مدرســـة الاطفال ويدمرونها تدميرا، وفي الليل وهم يتحدثون مع عباس الـــسجين يقلـــون له: ان تلك الصريفة هي صريفة ضلال وفساد ودار كفر.

و لم يكـــن الاستاذ حسين ليسكت لولا تمدئة رفيقه الاستاذ علي الذي قال له: الجميع بات فقيها في عصر الاقنعة.

التلمـــيذ الوحـــيد الذي سيبقى هو زيدون، حيث سوف يعلمه الاســـتاذ حسين والاستاذ علي والمعلمة صبرية بشكل سري. اما بقية

الاطفـــال فقـــد اقتـــنع اهلـــيهم بان الاستاذ حسين ضال فهو يفضل الرياضيات على الفقه.

مـــشكلة الاستاذ حسين سوف يتم نسيانها سريعا بسبب دخول الشتاء الذي ابقانا طيورا منتوفة الريش تبللها العاصفة. كنا بالفعل مثل فـــراخ الطـــيور داخل تلك الاعشاش المصنوعة من الخوص والقصب فباتت مثل اعشاش تتلاعب بها الريح والامطار والبرد.

اتـــت ســـيارات قديمـــة محملة ببطانيات قديمة مستخدمة وبعض ادوات التدفئة والطبخ الصدئة والتي يسموها: صوبة، جولة، مما تبرع بها العراقيون في ايران والذين كنا نحسدهم ونتخيلهم يعيشون عيشة رخاء فوق كوكب المريخ.

بالطـــبع لم يحـــصل الجميع على هذه الهبات الفاخرة، لكن الذي ســـهل الخطـــب ان عوائل كثيرة تم ادخالها الى ايران حيث كان لهم اقـــارب ومعـــارف في فيلق بدر. وهو عبارة عدد من الكتائب المقاتلة دافعوا عن ايران الحكومة ضد المعارضة الايرانية المسماة بمجاهدي خلق الـــذين لايرضى احد هنا الا ان يسميهم بمنافقي خلق. كانت معركة مـــشهودة دافـــع العراقيون وكانوا فيلق صغير من الجنود ضد اجتياح قـــوات المعارضة الايرانية المسنودة بسند بعثي صدامي وفرنسي دولي، وسمـــيت المعركة معركة طبس. بعدها عرفت ان فيلق بدر هو الجناح العسكري للمجلس الاعلى الذي يقوده محمد باقر الحكيم الذي يشاع عند نهاية كل شهر بانه سوف يأتي لزيارتنا فلا نرى سوى الهواء والملل.

مرضت عدة مرات في هذا الشتاء واصابني نحول فتت عظامي حيث شـــعرت ان الـــبلل وصل الى شرايني وان روحي تغطس بماء المطر المتسخ باجـــزاء القصب والحشائش، وان ماتبقى من عظامي ليس سوى اغصان مبللة هرولت بها الريح بعيدا عن جذع شجرها التي فتتها الصواعق.

لـــيس لدينا حطب، وهذه الحديدة الصغيرة التي فيها فتيلة مدورة ويـــسمونها: جولة، تبصبص فيها النار بصيصا اذا ما جاء احد لنا بقليل مـــن النفط، اما باقي الايام فتتركنا الغيوم والظلام الليل لاساطير الوهم تبصبص علينا. لقد تحولنا الى مخلوقات رخوة كاننا خلقنا من المخاط.. ننتظر الشمس ان تجففنا.. ننتظر الدفء ان يعيدنا لادميتنا.

في ليلة خلتها آخر ليلة لي في الحياة، كنت ارتعد من البرد ممسك بـــزيدون الصغير الذي ازرّق من البرد والحمى وامه التي انطفأ صوت بكائها، ووردة حمد جمر تحسرها، والزايرة ناظمية التي ابتعلت العاصفة حكاياتها، في تلك الليلة – الموت، اطل ابو رسول فالقى علينا ببطانيات واشعل كومة من القصب.

النار اعادة الينا الاحساس باجسادنا، وعرفت عندها ان لاحقيقة بدون الجسد، اخذت الخلايا تتفتح مثل عيون رضيع تقاوم ظلمة العدم. لكن ضوء النار اضاعه نور اكبر وافخم هيبة، حيث اتت ماجدة الحلوة مع بناتها الثلاث تتوسل الانضمام الينا ولم تنتظر ماجدة الجواب حيث تقرفصت هي وبناتها معنا.

نـــــزعت وداد غطاء رأسها فساد صمت مهيب، وتجمد ابو رسول على باب الصريفة غير مبال بغزارة المطر. كانت عيناه ثابتتان علـــى وداد، وداد التي كانت محتفظة بسكينتها على عكس اختيها اللـــتان كانـــتا لاتسكنان لحظة واحدة وهما يشتكيان البرد والمطر وقذارة المكان. اما وداد فكانت تتمايل بغنج فطري يكسبها شعرها الذهبـــــي تماثل مع الشمس، فاخذت اجسادنا تستمد منها الدفء متناسية النار التي امامنا.

مـــنذ تلـــك الليلة سوف يكثر تواجد ابو رسول في همّت لكن حديثه معي سوف يقل، اذ بات طريقه معروفا هو: بيت ماجدة الحلوة.

كـــنت اتصيد ابا رسول هذا كي يحدثني عن العمل الجهادي ضد حكـــومة العفالقـــة، كان خيالي يسرح مع حكاياته فاشعر باني كنت معهم.. ليس في الامس القريب وانما معهم منذ الازل، قلت له:

– متى سوف تنتصرون؟!

ضحك:

– القـــتال مثل الكتابة، لا يعرف الكاتب متى يكتب كتابة جيدة فيحق له ان يعتزل بشرف واعتزاز، وكذلك نحن.

ترك ابو رسول عود القصب الذي كان يلعب به وسئلني:

– لماذا تحب القتال؟!

– كي اكون رجلا، قلتها وانا ابتسم متخيل اني سوف الفت نظر ابو رسول اليّ

لكن ابو رسول باغتني:

– احـــذر من هذه الاغلاط المبكرة.. لازلت في بداية الحياة فلا تباشر الحياة باكذوبة.. نعم اكذوبة الرجل بمقدار مايحقق من قيم لا ان يقدم نفسه للموت ويتخلى عن الحياة هكذا حتى قبل ان يتعرف اليها.

ولما شعرت باني خسرت المعركة حاولت التفلت:

– ابن عمي جواد وكذلك عساف، يقولون انكم سياسيون

هنا نهض ابو رسول:

– العـــسكر لديهم السياسية تسلية.. هواية.. اما نحن فالسياسة لديـــنا مصير.. لاتثق بمن غاية طموحه السلطة.. اعرف ان هذا الكلام كبير عليك الان.. لكن لاتثق.. تذكر، فمن لايتذكر لايعيش.

– انتم ابطال فعلا

فابتـــسم ابتسامة صغيرة تبعها بحسرة ونظر صوب المدى البعيد.. الى آخر همت ثم قال كأنه يوجه الخطاب الى الافق البعيد:

– لسنا ابطالا ابداً.. لكننا مضطرون ان نكون كذلك. فالانسان مثل حبة الحبل لاتفوح رائحتها الا اذا تم سحقها او غليها، كي تكون تبلغ هامة ان تكون رجلا عليك ان تقاوم مطحنة عملاقة اسمها الوجود.. القدر

قلت مندهشاً:

– لماذا تستمر في القتال اذن؟!

– ليس الجميع لديه القدرة على قهر الحنين.

لقد عشت في ايران في فترة، هربت الى سوريا، ومن ثم لبنان، لكني في احدى الصباحات وجدت نفسي اعود.. حتى لو كنت اركب زوارق الموت كل يوم لكني مع ذلك قريب من هذا الجرح الموجع الذي نسميه بالعراق.. ليست هذه رومانسية ولا نفخ في الوطنية، انما هو اعتراف بشيء يتعدى نطاق الحرية.. ذلك المدى الذي يجب ان تركض نحوه الشمس كل يوم فلا تبلغه، وصدقني اني رغم كل هذا الضيم لا اجد طعما للحرية الا هنا.

لم افهم الكثير مما قاله لي كالعادة، بيد ان شيئاً ما كان يشدني الى ابي رسول، قد يكون ذلك لكون ابو رسول هو الشخص الوحيد الذي يستخدم الابتسامة حتى في الحزن، فلم اره متجهم الوجه ابدا. وكم تمنيت لو اني امتلكت الجسارة وسئلت ابو رسول عن سبب بكائه كلما انفرد بنفسه، وعن معنى كلامه ذاك. فحينما فاجأته مرة متلبساً بدموعه قال:

– الدموع هي الحرية.

ثم تركني ومضى.. وبقيت مذهولا، كهندي يحاول معرفة الصلاة.

لكن ومع حلول الدفء ورحيل الشتاء، سوف يختفي ابو رسول نهائيا ولن تتكرر زيارته لهمّت قط.

ورغم الحاحي على ماجدة ان تخبرني عنه الا انها كانت تجيب بلا مبالات عجيبة بانها لاتعرف عنه شيئا:

– زوجـــي.. ابـــن عمي... قرايـــي.. آني شنو علاقتي بيه داده حتى تسألني عنه؟!!

وكاد لساني يفلت ويقول لها: بل هو الذي يجعلك تصدرين ذلك التأوه في منتصف الليل، لكن خوفي منعني.

الزايرة ناظمية كانت تعيد طمأنتها:

– ابـــو رســـول مجاهـــد.. عمله هو القتال مع شباب المعارضة، يقاومـــون سلطة الخراب البعثية، وعمل المعارضة ما ينعرف يوم بالهور، يوم داخل العراق، يوم في داخل ايران.. الله اعلم.

ثم تلتفت الى الشيخ صالح:

– مو هيج عمي؟!

– اي مثل ما تقولين.. صحيح.. صحيح ناظمية.. لا تخاف ابني على ابـــي رسول الي تقوله خالتك ناظمية صحيح.

لكـــن ابـــو رسول فتح لي باباً موصدا، فشيئا شيئا اخذت اسئل ســـهاد وســـهام ثم اخذت اسئل وداد التي كانت تجيبني بصوتها الهادئ المـــنخفض الذي كان يرجني رجاً. ولا اعرف لماذا كنت احرص اثناء حديثي مع وداد ان لاتكون وردة في الجوار. كنت اشعر بشكل غريب بـــاني ملك لوردة.. لوردة وحدها، كأن اكون احد دجاجات امها او شيء من هذا القبيل!

بعـــدها كنت اقف صامتاً امام وداد، كنت اسرح بتلك النعومة الرهيبة، بذلك الثراء الطري:

– ستبقى واقفاً بالباب هكذا.. تعال اجلس

مـــادت الارض بـــــي، ضاعة اللغة في فمي وفكري غام تماما، ورغم ان وردة اشارة الي بالجلوس قربها تماما الا اني جلست على فاصلة منها، كانت الرعدة تميمن عليّ تماماً

ياالهي انها تبتسم.. اشعر ان الدنيا تتفجر نوراً:

– انت خجول... تصورتك وقح.. خاب ظني بوردة

ورغم ان اسم وردة كبلني وزاد من تخطي الا اني قلت لها:

– لماذا.. ماذا عملت وردة؟!

– مـــشكلتها انها لم تعمل شيئا فتركتك هكذا وها نحن الان مثل افعى وعصفور.

شعرت بنوبة خوف عابرة، ولت حينما عاودت وداد الابتسام.

– اين اهلك.. لاتقل ان هولاء المعدان اقاربك واتيت لزيارتهم

– لا.. لا كنت مع عائلتي نعبر الحدود لكن الجيش امسك بهم

– وانت سوبرمان يعني

– شنو يعني سوبرمان.. طلي، خروف، ثور؟!!

تضحك وداد وترفع رأسها كفرس تصهل شهوة:

– لا ولك.. قصدت اشلون اتخلصت انت؟!

– كـــنت صغير وضعني ابن عمي جواد في زورق الاغراض التي جلبناها معنا، كنا سبقنا الزورق الذي فيه العائلة هربنا وامسك الجنود بعائلتي.

– ماتوا.. يعني انت الان يتيم.. لا.. خطيه

– ما اعرف.. يمكن

– مسكين، قالتها وداد ممطوطة بحلاوة اذابت روحي.

اخذت رأسي ومسدت على شعري:

– لاتبكي

– انـــا لا ابكي، قلتها وانا ارتجف غير مصدق ان رأسي يلامس صدرها، يكاد قلبـــي يفر من صدري ويطير.

امسكت برأسي وتمددت، ثم قالت بهمس:

- تعال

اصـــبحت فـــوقها، اخـــذ جسدي يزداد ارتعاشاً، كانت عيناها مصوبتان بثبات نحوي

وجدت نفسي احتظنها بقوة، التصقت بها فغمرتني سعادة طاغية ولـــذة لاتوصف لتلك الطراوة المفرطة، قبلتها بنحرها.. تلك الرقبة التي قتلـــتني منذ اليوم الاول لوصولها لمست، كنت في غمرة نشوتي وذهولي وتلبكـــي، فسمعت صوت وردة. كأن كل شيء توقف بلمست زر، قفـــزت بذعـــر ممسكا بالجدار القصبـــي محدثا فتحة فيه غير مكترث لكلام وداد:

- لاتخف.. قلت لك لاتخف.. لا صير جبان

ومثل قط حشرت جسدي و لم اصدق اني خرجت من الصريفة، خـــرجت ومشيتي متزلزلة اجهد ان لا انظر بوجه احد، كأن جزء من رقبة وداد التصقت بـــي..

امـــسكني عباس وعساف، سئلاني عن الاستاذ حسين وبصعوبة تحدثت معهم:

- انت مريض؟!

- لا.. يمكن.. مع السلامة

شـــاهدت ابـــو غيث يلوح لي ان اجيئه، فاشحت بوجهي عنه واكملت طريقي كأني لم اره.

امضيت اليوم كله في جنب قصي، ثم ذهبت الى موزاية وقلت لها بان ظرسي يؤلمني فراحت تعمل لي كمادة صغيرة واشعلت لي سجارة وقالت لي اشربها لكن حاول ان تجمع الدخان بفمك اطول مدة ممكنة.

في بداية الاسبوع اتى ابو هدى وقال يجب ان اعود للدرس الديني في الخـــيمة الزرقاء وهناك بتنا ندرس بعض آيات التفسير من كتاب عملاق

اسمه الميزان في تفسير القرآن لمحمد حسين الطباطبائي، والذي يسمونه السيد العلامة، فاخذنا نقرأ مايقوله الطباطبائي، او السيد العلامة:

{عبد الله سبحانه الإيمان والدار الآخرة حياة، وآثار الإيمان وأفعال أهل الآخرة وسيرهم الحيوي نورا كما قال: «أ ومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها:»، وقال تعالى: وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، فالشرك موت والمعاصي ظلمات، قال تعالى: أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، فالمغفرة إزالة الموت والظلمة وإنما تكون بحياة وهو الإيمان، ونور وهو الرحمة الإلهية.}

وفي لجة التأثر قلت لأبي هدى اني سوف اصوم رمضان هذه السنة ففرح كثيرا لكونه مل مني في العام الماضي و لم تنفعه جميع احاديث الجنة والنار وكلام كتب الفتوى والفقه باني بلغت سن الرشد وعليّ ان اصوم ولاتكفي الصلاة. ولا اعرف حتى الان كيف لشخص في همّت ان يصوم وهو محاصر بقلة الطعام وانعدام وسائل الخدمة بالاضافة الى حصار الاهمال والترقب والاحساس بعدم اليقين.. عدم اليقين بكل شيء حيث لاشيء تستطيع تعريفه او تحديده بما في ذلك الارض التي تسير عليها.

اذا انتهى شهر رمضان سيكون لي عامان في همت.. عامان هما كل ما اتذكره عن حياتي.. عامان سرحت فيهما بشلال الكلام والعراك.. قصص ناظمية وحقد فليح.. هذه هي حياتي ضوء من الحكايا يدثره عويل مكتوم.. عويل يبلل وسادتي.. فالأجرب لايهمه أكل الزقوم.. فلنجرب الصيام عله ينفعني.. عل الكف عن الحياة يفتح كوة فيها فننفذ منها.

* * *

لم تشهد همّت من قبل كل هذا الصخب، حتى النساء خرجن ولم يكترث لهن الرجال رغم مفاجأتنا بوجود كل هذه النسوة بيننا ولم نرهن. وصلت سيارات عسكرية عديدة لفيلق بدر، سبقتها منشورات صور فيها محمد باقر الحكيم، وارتفعت اهزوجات وهتافات لاتعرف متى نسجت وكيف. الجو صاخب والناس تتدافع، واخيرا هل الهلال، فارتفع صوت هذا ليس هو السيد الحكيم، هذا ممثل المجلس الاعلى السيد ياسين النجفي. لقد اجتمع كل من كان في همت حتى من كان في اطرافها البعيدة. كنت اراقب بذهول الاثول لون السيارات السود وعمامة هذا السيد السوداء متذكر قبل ايام جهود ابو صباح في جمع تبرعات لجمع مبلغ من المال وابعاثه بيد احدهم كي يأتي بطلاء اسود من الاهواز كي يتم صبغ الخيمة الزرقاء بالاسود ويتم تسميتها مجلس ام البنين او خيمة التعزية الحسينية، ولما اشتد الخلاف وتكاثرت الاسماء حتى ان معركتين سالت فيها دماء من الرؤوس وتحطمت في اضراس عديدة، قام عساف واقترح ان يتم تسمية الخيمة السوداء الجديدة باسم: خيمة السيد الخميني للتعزية الحسينية، فتم المقبول على مضض ولم تهدء النفوس الا حينما اتى ابو غيث مهرولا باكياً وهو يصيح بانه شاهد في المنام السيدة الزهراء بنت رسول الله، تقول له ان هذه الخيمة هي خيمة الاحزان، فتم تثبيت اسم: خيمة الزهراء للاحزان الحسينية، وكان الامر مضحكا الى ابعد حد فما تعاركوا عليه كان بضع قطع من الكارتون الممزق الذي تم الشخبطة عليه اكثر من مرة، لكن حينما اقترب وصول وفد المجلس الاعلى تم جلب قطع قماش طويلة مكتوب عليها: {ياحسين.. ذوبوا في الامام الخميني كما ذاب هو في الاسلام } وهي مقولة تنسب الى آية الله محمد باقر الصدر، العالم الشهير الذي اغتاله صدام حسين في بداياته حكمه وتسلطه في ثمانينات القرن

العشرين. الناس تزدحم وتتعالى الاصوات بالتكبير والصلوات، والسيد ياسين يبتسم وملابسه نظيفة لامعة لاتكاد تتأثر بالاغبرة والاوساخ المتطايرة نتيجة ازدحام الناس. وفي لجة هذا الهوس الجماعي والصخب الديني الذي تفجر كعناد مضاد للفقر والبؤس واليأس في هذه الارض الخلية، صاح شاب: هذا الرجل دجال، هو من ورط شباب جامعة البصرة وقذف بهم الى الموت.. تناوشت الايدي والاقدام واخذوا يتكأكأون عليه، وبصعوبة انتشله الشيخ صالح مع الاستاذ حسين وبعض الرجال.. والشاب يعاند ويصيح: والله العظيم هذا الرجل دجال.. دجال

تماوى الشاب تماماً، افاق بعد ساعة ونصف تقريباً، اجادت وردة الاسراع بتحضير كقطع قماش صنعتها الزايرة ناظمية ككمادات نظفت ببعضها الفم والخدود وعظم الترقوة من الدماء والرضوض. لما فتح عيونه شاهد وردة وهي تجلس بقربي تحدثني، ولما اقترب المغرب اتت وداد تطلب بعض الطحين، قلنا له ما هو اسمك؟! فاجاب: اسمي حميد، كانت عيونه مفتوحة على اتساع مضيني، غالب ابتسامة ان تبقى رهينة فمه المرضوض، الا انما فرت منه كعصفور رأى باب القفص منسياً: آه.. اشلون همّت حلوه أهنا.. حلوه

على طقطقت القصب المحترق بنيران العشاء، سأل حميد عن السيد ياسين، فقلنا له بانه ذهب بعد انتهاء خطبته الرنانة عن الانتفاضة والوعد بسقوط حكومة العفالقة والقصاص من صدام حسين وكلابه. ضحك حميد ثم اخذ يضرب الارض بحقد:

– تفو على هيج ناس دجالين

حاول الشيخ صالح تهدأته، وقال له ان السيد ياسين مهما حصل هو رجل معمم وابن رسول الله وانه يمثل السيد محمد باقر الحكيم زعيم المجلس الاعلى للمعارضة العراقية.

جحضت عينا حميد وارتعش جسده بكامله:

– لاعمي.. ابوس ايديك لاتقول هذا ابن رسول الله.. مو كلمن قال انا سيد يكون مقدس وبركه.. هذا الرجال ضيع شبابـــي وبسببه راحت ارواح ناس ابلاش.

ثم انخـــرط حمـــيد بالبكاء: ماراح اصدقوني.. الجرح اتغطيه لحيه وعمامه.. اخذ يعض على سبابته ويصرخ: آخ ولك حميد آخ

– اهدء وليدي.. اهدء ترى مو كل امصخم وجه قال انا حداد، لكـــن اعذر الناس.. للناس الظاهر، ومن يتعب الانسان ويأس يكون الحيوان افضل منه الف مره. همسه شنو قصتك ابني؟!

– اخ عمي شنو اكدر اسولف لك.. كنا شباب همنه الدراسة هم للمستقبل وهم نخلص من الدخول للجيش وخدمة نظام الوحوش، كان بعـــضنا يصلي واذا جاء رمضان انصوم، ولم نقرأ كتاب في الدين غير القـــرآن. وفي احـــد الايام ظهر ان احد الطلاب لديه اتصال باحزاب المعارضة وكانوا يزودونه بمنشورات وكتيبات صغيرة، فيها احاديث عن النبـــــي والائمة، بعضها مختوم بضرورة التصدي للظالمين. كنا نتبادل هـــذه القـــصاصات بلذة كأنها كانت نافذة على عالم سحري مدهش ولذيذ، ولغرة قصورة تجربة الحياة اخذنا نتصور كل شيء فينا هو جزء مـــن البطولة، فاخذنا نشتم حزب البعث في اجتماعاتنا الخاصة ونتخيل اننا نقود معركة لتحرير العراق.. لتحرير العالم.

وفي احـــد الايـــام اتى ذلك الطالب واسمه ناجي، محمل برسالة شفوية تقول ان فيلق بدر سوف يهجم وان ساعة الصفر قد حلت وما علينـــا كي نؤدي فريضة الجهاد وانقاذ الوطن سوى الحضور في منطقة ريفـــية في مدينة العمارة، في اليوم المحدد وصلنا كنا اربعة رفاق فاذا بنا امـــام حشد هائل من طلاب المحافظات، انتظرنا باعصاب مشدودة من

القلــق والتــرقب والخوف والحماس، ساعات تمضي طويلة، الشمس ترتفع والظغط النفسي يزداد ولم يحدث اي شيء.. وقبل اليأس المنحي اتــى هــذا الــشخص وقال لنا ان كل شيء تغير وعليكم العودة الى مــنازلكم. تــصور هكذا ببساطة نعود، كيف يعقل ذلك السيطرات المنتشرة في كل مكان لحزب البعث لاحظت بالتأكيد توجه عدد كبير من شباب الاعدادية والكليات الى منطقة ريفية وفي وقت محدد.. ماذا ســنقول لهــم؟!.. بماذا سوف نفسر هذا الغياب الجماعي امام مدراء المدارس والكليات؟!

كانــت دعــوة مفتوحة لموت متهور وسخيف، الذين عادوا الى مــنازلهم ودوامهــم المدرسي لاقى ابواب الجحيم في انتظاره، البعض اعترف والبعض مات او جن تماماً من شدة التعذيب، البقية كان عليهم الفرار من بيت الى بيت، حتى اليأس فالهروب الى هنا الى الارض الميعاد البائسة همت.

كــيف تــسمح قيادات تنصب انفسها زعماء على الناس، بان يتلاعــبوا بــشبان ســذج هكذا.. ماذنب شعب محاصر بعمل تعليب الافكار فاذا ما وجد قصاصة ورق سخيفة يظن انه حصل على معجزة لا لــشيء الا لكونها تعطي فكرا مختلفاً فيسري بعروقه وهم اظافي بانه ينتمي لقبيلة النصر والمعارضة والجهاد والتحرير والثورة، وغير ذلك من اوهام وخراء..

لم يــنقطع صــوت أنــين حميد تلك الليلة فلا هو نام من شدة الاوجــاع ولانحن من تقطعات الصوت، ما ان اشرقت الشمس حتى طوقــنا الرجال ووجهو الخطاب بشكل مباشر: نريد هذا الكلب الذي شــتم السيد ويشيع الاكاذيب حول زعماء المعارضة العلماء قدس الله اسرارهم... كان فليح وعساف وابو صباح وابو هدى وجميع المواطنين

علـــى الحـــضور في الخيمة السوداء (الزرقاء سابقاً) في المقدمة. وقف الشيخ صالح بدون ان يرتدي كوفيته:

– ماذا انتم صانعون به.. شتريديون اسوون بيه؟!

قالوا بصوت واحد:

اريـــد اندبه... شيخ صالح هذا تجرئ على اولاد رسول الله، يعني هو والكافر سوه

– بس يمكن قصته حقيقية

انفتحت العيون وانتفخت الاوداج:

– شنو هالكلام مو انت رجال عاقل، انكذب سيد معمم وجهه نـــوراني من كثرة الصلاة، ونصدق واحد مايعرف يتوضأ.. على بختك شيخ صالح مو هاي الي كانت مرجوه منك.. لا والله.

خرجت الزايرة ناظمية من الصريفة وقفت بجنب الشيخ صالح:

– يعني شتريديون منه ها.. اتريدون تقتلوه؟!

– هذا الشي ما يخص النسوان، اجاب افليح

تقدم عساف وهو يفرك اصابعه:

راح نـــبني سجن من قصب ونعذب بيه هذا الكلب حتى يكون عـــبرة لمن اعتبر. اليوم يعتدون على عمامة رسول الله بكرى يشتمون النبـــــي... استغفر الله اعوذب من غضب الله.. لازم نبني سجن امراً بالمعروف ونهي عن المنكر.

وقبل ان يجيب الشيخ صالح هجم الرجال على الصريفة، صرخت ناظمية، صرخت وردة، تدافعوا فسقط الشيخ صالح، تناولت رزمة من القـــصب قذفـــتها بوجههم.. اخذت نعلي الشيخ صالح فرميتها ايضا، هجمت علي الايدي، تحول الافق الى ارجواني مرتج ومترنح وكأني في سفينة مقلوبة وقت الغروب.

بقـــرب جرف نتن بفعل البراز والبول، تم وضعي انا وحميد في حفـــرة تمت على عجل محاطة بسور قصب صغير، في الليل اتوا بمياه ســـاخنة انبئتنا رائحتها انها مياه متسخة، تصارخنا انا وحميد وكلما حاولنا تسلق الحفرة، اتتنا ضربات من حراب احزمة قصب تمم قطع مقدمـــتها بـــشكل مائل حاد.. كانوا يتلذذون بتعذيبنا وكنا نعاد ملـــتذين بغـــرابة برشهم بوابل من الشتائم والكفران وشتم الائمة والعلمـــاء وزعماء المعارضة وكل مايخطر على بالنا من مقدسات. وكلما اهتاجوا هولاء الخليط من معدان وابناء ريف ومدن، شعرت انـــا وحمـــيد باننا نحن الذين نعذبهم. يومان بقينا هكذا فبتنا نحذي ونـــأن. في الـــيوم الثالث اتى الدكتور ابراهيم ورفاقه الممرضين مع الـــشيخ صـــالح والزايرة ناظمية، سوف نعرف بعد ذلك ان وردة وناظمية استنجدتا بالجدة برحية وهي التي استخدمت امتها وهالتها كي تنقذنا. كانت عيوني مطبقة بفعل الجروح والكدمات وسواعد اليد ثقيلة وفخذيّ كأن فوقهما حجر، شعرت ان جسدي تتبخر من مـــساماته ارواح عذاب شريرة، حينما ظللني سقف الصريفة. بفعل الـــبقاء المستمر تحت الشمس سرت الحرارة الى الخلايا الداخلية. لم اكن اعي سوى تنشقات وبكاء وردة، وصوت ناظمية: الله لايطيهم انشا الله.

عـــند العشاء انفتحت احدى عيني فالتفت اليّ الشيخ صالح وهو يـــضرب يـــد بـــيد: هذول بلا حكم ولا سلطة وبنو سجن ومارسوا الـــتعذيب علـــى الضعيف.. شنو راح يسوون لو لزموا الكرسي من صدق.. الله يستر.. الف لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم.

بلعت ريقي، كان حامضاً، مرّاً ولزج كريه: لاعمي.. بنو سجن ومسجد، تعذيب وكذب.

كان حميد اكثر مني صلابة، فاخذ يتعاق بسرعة، كان بكاء قوجانس لاينقطع وكأنه يسابق وردة. اخبرتني وردة ان الشيخ صالح وامها الزايرة ناظمية، اظطرا الى وثاق قوجانس كي لايأتي ويحاول انقاذنا فيكون ثالثنا في هذه الحفرة.. عجيب اي كره نزل على هولاء الناس.. ولماذا لم يجتمع هولاء الفرقاء الا بالوهم والتشفي من ضعيفين لاحول لهما ولا قوة؟!

لقد اعتبر ابوصباح ان ما حصل بمثابة قصاص طفيف فنحن نستحق الموت لكوننا كنا نتلفظ بالكفر وشتم العلماء، ولم ينجح الشيخ صالح والزايرة نظمية في اقناعه باننا كنا نقاسي العذاب ولاتثريب على من فقد صوابه من شدة الالم.. هل يعرف هولاء شيء عن الالم.. لماذا هربوا من العراق.. يقولون انهم هربوا من وسائل التعذيب البعثي والصدامي.. كذب.. كذب هولاء هروبوا من العرق لانهم لم يستطيعوا ان يكونوا جلادين، البعثيون كانوا اكثر جدارة بمملكة الحقارة وهولاء يأتون بعدهم.

بعد العشاء اتت ماجدة وبناتها مسحت وداد على شعري ودمعت عيونها بصمت.. قبل الظهيرة كنت انا وحميد نجلس لوحدنا نتجادل مع صمت غريب، قال لي: انت محظوظ يوجد هنا من يحزن عليك... شنو عليك يابا ماتحزن عليك بس الحلوات والحديثات (=الصغيرات الواتي قاربن الزواج والمضاجعة).

كان ينتظر مني الجواب، لكن شفتيّ كانت تؤلماني بشدة وقلبي مجروح اكثر من هذا الافق الحزين. قمت من دون ان اكلم حميد بشيء، راقبت الطريق وبسرعة دخلت الى صريفة ماجدة، رحبت بي، لم اكلمها تأملتني ثم صاحت على وداد وقالت: شوفي شغلج..

استغربت هل تعد هذا عملا.. هل تظن ماجدة اني اضاجع ابنتها، هم بيت دعارة اذن. هرولت نحوي وداد احتظنتني ثم جلست فوضعت رأســي بحظــنها، اخذت تمسد شعري وتمسح برفق على اورام شفتيّ، شعرت بخدر وتململ، ثم سرحت في نوم عميق.

لمــا افقت قالت وداد: عليك ان تغادر همّت انت الان ضعيف وبــات لديك الكثير من الاعداء وانت وحيد، اهرب عليك ان تهرب قــبل ان يــتم تلفيق تهمة اليك فيتم رجمك تحت شمس الظهيرة وامام الجميع.

لما لاحظت وداد علامة السؤال في عيوني المنكسرة، قالت لاعليك ســوف اقنع الدكتور ابراهيم ان يضعك في سيارة الادوية بها تهرب الى الاهواز وهناك حاول ان تعيش وتدبر امرك.

– وانت.. كيف ساراك، قلتها بصعوبة وانكسار مضاف

انحنت عليّ وخصلات شعرها الذهبية الامعة تمدلت فوقي:

– انــا وامي سوف نذهب الى مدينة قم او طهران، على اية حال لابد ان نذهب الى مدينة قم، هناك عمل ضروري وهام تقول امي، يقولون ان عراقيون كثر هناك، سوف نحاول ترك علامة وانت ايضاً.

ثم ابتسمت وداد وتوردت خدودها مرتجفة:

– تحبني؟!...

حاولت ان اجيب، فوضعت اصابعها السكرية الترفة الطرية على شفتيّ:

– لاتتكلم.. هذه اول مرة اتعرف على شخص يريدني انا وليس كلــب يــنهش بلحمي ثم يتفل بصاقه داخلي ويذهب. قد يكون هذا بسبب ضعفك.. مع ذلك لايهم معك شعرت باحساس مختلف.

في الليل قلت للشيخ صالح بامر الهروب الى الاهواز، وكذبت عليه في مسئلة كيفية اقناع الدكتور ابراهيم. قال لي الشيخ صالح انه الخيار الوحيد فحتى لو تم نقلنا الى المخيمات فان هولاء الاوباش لن يتركوني وهناك ستكون لهم سلطة اكبر بفعل التملق للايرانيين، وليس بعيد انه سوف يقولون اني ضد ولاية الفقيه او اني جاسوس بعثي حتى، من يعلم ما يمكن ان يفعله هولاء الاوغاد.

قامت وردة ودخلت الى الصريفة وتعالى صوت بكائها.

قال لي الشيخ صالح: عليك ان تأخذ معك قوجانس وحميد. فقوجانس شخص يرتاب به كثيرون وكلما اتت مجموعة جديدة من العراقيين الى همّت حلموا به ورأوا ذلك الحلم، ثم ان قوجانس لن يهدء اذا رحلت ولابد ان يتصادم معهم فيدبروا له امرا لتعذيبه والتخلص منه.

ها نحن مطاردون من جديد.. بماذا كنا نتهم حزب البعث وصدام اذن؟!

تطلع الشيخ صالح نحو الافق الكأيب وعب صدره بالهواء الراكد: كأننا نجتهد للوصول الى الجحيم وليس محاولة الدخول الى الجنة.. ضرب يده على فخذه: طرااا.. وبحسرة قال: دنيا فيها العجايب.

كانت الايام الباقية هي محاولة ترويض الشوق واللوعة، محاولة لتطويع انفسنا على الغياب. كنت انا ووردة نمشي يد بيد بدون كلام، نتبادل النظرات. الشيء الوحيد المطمئن هو وجود معلومة غير مؤكدة ان السيارات التي سوف تأتي وتنقل الناس الى داخل ايران سوف تاخذ القسم الاكبر الى محافظة ايرانية اسمها آراك والبقية الى معسكر الاهواز. اذن محل الاقامة سوف يكون معلوماً واستطيع ان اجد طريق وردة بسهولة.

الى هنا كاد هذا الفصل من الرحلة ان ينتهي لولا حضور شخصية جديـــدة الى همّـــت، كان رجلا غريب الاطوار والملبس. فهو يلبس قمـــيص مخطـــط وبنلطون مخطط ايضاً، ويرتدي قبعة غريبة تشبه قبعة الجـــنود او الرسامين، ملابسه قديمة وكأنه خارج من فلم اكلاسيكي هزيل. هذا الشخص يتعالى الجميع ويتعامل مع الجميع بترفع، لم يمكث في همـــت طويلا اذ سريعا ما جاء اشخاص يعرفونه واخذوه الى العمق الايراني. هذا الشخص لم يفقد توازنه ويخرج عن لايقته المتصلبة الا مرة وتحـــد حيـــنما سمـــع وردة تصيح على قوجانس ان يعجل المشي الى شاحنات المياه الحلو التي اتت وعليه ان يعبئ القناني المطاطية الكبيرة قبل ان يكثر ازدحام الناس.

مـــا ان سمـــع الحاج عادل ميرزا، وهو اسم هذا الشخص، باسم قوجانس حتى بات جنديا في حالت نفير. لم يحتمل الا واتى الى صريفة الزايرة ناظمية واخذ يحدق بقوجانس، وكلما سئله الشيخ صالح: شنو القصة حجي ميرزا؟!

يجيب: يمكن هو يمكن مو هو

ولما مللنا لعبة القط والفأر اخذ الشيخ صالح بتلابيب عادل ميرزا فصاح ميرزا احجي والله راح اتكلم.. أعفوني.. شيخ ماكو شي يسوه:

القصة ومابيها انه كان عندي محل خياطة بغداد، كان محل صغير وكـــان قـــبالتي محـــل كبير وعلى الطراز الحديث، وكان بيه لعابات ابلاستك يتم تلبيسهن ملابس لجذب الزبائن، وكان هناك شخص يأتي لـــشرب الـــشاي قـــرب مقهى يقع لصق دكاني، كان فتى غر ثم كبر واصـــبح شاباً ظريفاً، وهو لايمل يتطلع الى تلك الدمية كان يقوم بمسح يومـــي لقوامها وعيونها الخضراء الواسعة التي لاتنام، ولرقبتها اللتي بلون السكر. وفي يوم من الايام حضر ذلك الشاب فتفاجأ ان حبيبته الدمية

غير موجودة هجم على المحل، سألهم في البداية مرتبكاً ثم اخذت كلماته تتشجع شيء فشيء بعدها اخبروا ان الدمية وقعت البارحة وانكسرت افـد سيقانها ووجها تخدش، قادوا الى المخزن وهناك وشاهد الدمية في قفص من الكارتون تم وضع الاشياء المهملة فيه.. صرخ وضرب رأسه بزجاج المحل.

قلـنا لعـادل ميرزا لكن قوجانس يتحدث دائما عن اناس سود البشرة وعن شخص يسميه المنقذ.

قهقـه عادل ميرزا: مو الدمية الجديدة الي تم وضعها بدل الدمية التي تكسرت كانت سوداء. ومحتمل انه فكر في نفسه انه خائن لم ينقذ حبيبته. هو شخص مجروح وبالتأكيد صار بيه شحط من الجنون لكون حكـومة حـزب البعث شرته في العسكرية، يعني شخص رومانسي ورقيق ينصدم بالقسوة والبشاعة شيصير بيه؟!

اصـابنا الذهـول والكثير من عدم التصديق. لكن الزايرة ناظمية قالـت بما معناه: من قال ان فضح الاسرار يسقط الاسطورة؟!. اصبت بخيـبة حـيث كـنت اتخيل قوجانس حفيد سلالة الهية، او ابن زعيم مقتول، او علامة من علامات ظهور المهدي صاحب الزمان. حسافه.. آخ اشـعر بالهظيمة.. حتى الالهة تخدعنا.. لكن لماذا نحن نرتقب الامور الغـير عادية.. لماذا بنا شوق للمعجزات، بسبب هذا التفكير نحن اما انـتحاريون واما محرّفون لانستطيع ان نكون جزء من هذا العالم، لدينا مـشكلة انـتماء حـتى مع انفسنا.. نحن مع ذواتنا بحاجة الى ادوات تعريف!

وددت لـو اذهـب الى الجـدة برحية واشكرها وكذلك اشكر زوجـتيّ فلـيح الرائعتين واملي عيني من جمال تلك العيون الحادة لام راجـي، لكن الخوف من ان يمسكني فليح لسبب او دونما سبب او انه

قد يشعر بشيء، طرد الفكرة تماماً. كانت الخطة تقتضي ان نجتاز مسافة كبيرة من همت ومن هناك نصعد السيارة ونغطي انفسنا بعلب الادوية الفارغة وكراتين مواد كريهة الرائحة واوراق كبيرة الحجم طبية. اصرت وردة ان تمشي معنا وتودعنا عند آخر نقطة لكن الحاج صالح قال لاداعي فقد يكون هناك خطر كبير اذا بكت وردة او انهارت اعصابي انا.. انا الذي كان يزداد ارتعاشي وتهدمي كلما اقتربت ساعة الفراق. المصيبة المرة على الوردة كانت مضاعفة اذ كان على وداد دور الحضور ومشاغلة الحراس الايرانيين الذين تربطهم بعساف وفليح علاقة وثيقة كما اخبرتنا وداد وعلينا كي نخرج من همت ان يكون سرياً اذ قد يكون عساف وفليح قد وشو بنا عند هولاء واعطوهم مواصفاتنا، هكذا ودعت وردة كاد ان يغمى عليّ فعلا وانا ارى ملامحها تتبدل ويشحب لونها الى ذلك الحد المخيف، واضح انها تواصل الليل بالنهار بكاءا. قبلتني ناظمية واحتظنتني، وكذلك فعل الشيخ صالح ثم ناولني ملفوفة صغيرة وقال لي: هذه تعويذة كانت مربوطة بعظد قوجانس حينما اتى والده به الينا، ولما كبر بات لايرتديها الا في بعض الاوقات حينما تشتد حالته، خذها معك فهي امانة على اية حال. اخذتها ودسستها في جيبي، مع كمية من المال لابأس بها اصرت وداد ان اخذها، كانت خليطا من العملة العراقية القديمة المسماة سويسرية، والجديدة الحاملة لصورة صدام حسين، واوراق نقدية ايرانية، ولن تستطيع لغة ما، اي لغة كانت، نقل ماحصل لقوجانس من عذاب وهو يودع الزايرة ناظمية ووردة والشيخ صالح، كانت دموعه تسيل سيلا، ويضرب نفسه ويصيح:

لا اريد الخروج من اليأس.. اخاف ان يتم انقاذي فاتبدل، وبعذاب متواصل هدأ فصار مثل حبل رخو بائد لكثرة ماتم استخدامه كمشنقه.

بينما الشيخ صالح اعطانا ظهره كي لانرى دموعه واخذ يأن بصوت خافت كالرماد:

أتجلد بمشاي ناحل تراني

خوفي من الشمات مو من زماني

فردت عليه الزايرة ناظمية بتنهد:

لا تنشد اعله هواك الفاته فاته

يرقص چذب خلاه حجي الشماته

فرفع قوجانس رأسه بثقل وكأن جمجمته مقطوعة تم ربطها بحبل رقيق:

شمايّ مو شمات شمايّ شمات

بالگبر ويصيحون حي بعده لو مات

عندها سمعت صوت وردة ينتحب داخل الصريفة فأتى صوتها مثل المياه المتسربة المتدافعة من شروخ سد قديم:

شمايّ مو شمات شمايّ محنه

عالقبر ويصيحون ما تم فرحنه

لا اتذكر ان هذا هو الذي حصل فعلا او ان الخيال يخلق ذاكرة اخرى حين الكتابة، ام ان جرح الهم هو الذي صاغ هذا الحوار، ام ان الزمن فعلا يمكن ان يحول الناس الى شعراء ومفكرين في ساعة حرجة مثلما يخلق منهم مجانين ومجرمين في ساعات كثيرة.

قالت لي الزايرة ناظمية: دير بالك أبني لؤي.

كأنه أول مرة اسمع فيها اسمي. فتذكرت ابي استاذ المدرسة كيف بات أتي مقهورا الى البيت لايتكلم مع امي ولا معي. وكلما

انـــتفخت بطن امي اكثر ازداد بكائه. فقد صبره فهو في الصباح استاذ وفي العصر بائع سجائر يتضاحك عليه التلاميذ. فقد اعصابه لهذا الوضع الـــذي خلقـــه صدام حسين بعد اجتياحه للكويت فتم حصار الشعب العراقي بحصار نفسي واقتصادي. وحدها العوائل البعثية كانت مترفة. واشـــغالا للـــناس ومحاصرتهم اكثر تم اشادة منظمة جديدة هي فدائيو صدام واخرى اسمها اشبال صدام، مراهقون يحملون السلاح ويسهزأون بالـــناس. لم يـــستطع ابـــي الصبر على حفل صخب لهولاء المراهقين المتلاعـــبين باعراض الناس في الشوارع والاسواق. كان لابد ان تصدر منه كلمة ارشاد لهولاء الصبية المستلحين فبعضهم كان تليمذا لديه. النـــصيحة تحولت الى حبل مشنقة. تحول بيتنا الى قبر وقررت امي الفرار بـــي وبطفلتها الصغيرة. تضامن معها ابن عمي جواد كحيلة للهرب من العراق اذ لاوسيلة لكسب موافقة ابيه سوى هذه المهمة. لكـــن امي لن تعبر الحدود. فقد امسك بزورقها الجيش وبقيت انا وجـــواد نـــرتجف من القهر والخوف. خوف كان هو كل خلاياي وكياني العصبـــي. كيف كنتُ بلا اسم كل هذه المدة.. بلا وجود ولا ذاكرى؟!

عند آخر نقطة وجدنا سيارة المستشفى- الصريفة الطبية، تنتظرنا كانت مصبوغة بالاحمر والابيض، فعرفنا انها احد السيارات العراقية التي تم تحـــريبها الى ايـــران ايام انتفاضة شعبان التي تفجرت بدخول صدام للكـــويت.. آخ كـــم من المنجزات التي تحققها الثورة بيسر للشيطان بدون ان يتحمل اي عبئ او مساوئ؟!

صـــعدنا بعد ان انـــزل السائق ابو عماد بعض مافي السيارة من ادوية وكراتين واغراض، ثم وضعها على اجسادنا، فاصبنا بقشعريرة من الـــسوائل الـــتي تنقطر فوقنا ورائحة المواد الطبية المدوخة، كأن حاسة

الحـــذر الجمة قوجانس عن اي حركة جنون، كان صوت وداد ناعما وهـــي تلاطف الجنود فكانوا يتخدرون وكأنهم امام معجزة، انطلقت الـــسيارة بعـــد ان فتح احد الجنود الباب الخلفي، حيث كانت سيارة متوســـطة الحجم تحمل خمسة ركاب لكن بفعل الاغراض كان كرسي الـــسائق هو الكرسي الوحيد الفارغ من الاشياء. انطلقت بنا السيارة وبعـــد ربـــع ســـاعة ارتفع صوت ابو عماد قائلا ان بامكاننا الظهور وتـــرتيب المكان والجلوس بشكل عادي. كان الوقت قريب الفجر لما صعدنا الان بدءت الاشياء تتكشف. فاخرج حميد دفتر واوراق واخذ يكتب عليها، فهو يهوى الشعر ويحب الفلسفة كما يقول، ولم يشرح لي رغم اصراري ماذا عساها ان تكون هذه: الفلسفة؟!

رغـــم عـــدم وجود مايحجز الشمس، فلا ابنية ولا اشجار، فإن الصباح كان يأتي متعثرا كأنه اللص.

توقفت السيارة فجأة والتفت ابو عماد الى حميد وعيونه باتتا حمر مشتعل، قال مخاطب حميد:

سوف ندخل الى ايران الان.. الى ايران اتفهم؟!

وقبل ان يجيبه احد اجاب نفسه:

لا لم تفهـــم.. هذه دولة تخاف من الناس.. بالامس كان الموساد والان البسيج وحرس الثورة.. هذا يعني ان تجد السلاح في كل مكان.. واذا حضر السلاح باتت الاوراق هي الخطر.

((اذا وصلنا قرب نقطة حراسة اياك ثم اياك ان تلزم دفتر وتكتب، وهذوله العجم ماينعرف اشلون يفكرون))

هكـــذا صرخ بو عماد ثم عاد للقيادة. وبقي حميد يصارع نفسه بفكـــرة التخلي عن القراءة فهو لايكف عن قراءة كتاب ضخم يحمل عـــنوان: خـــزانة الادب. وحيـــنما يقرأ حميد فأنه يفقد جميع روابط

الاتـــصال بالذي حوله. يذوب ويتلاشى وكأنه يشرب خمرة معتقة او مخدر نافذ المفعول.

احـــذنا نبـــتعد بصمت تجمع الحزن في الروح وفي المكان هكذا فجأة، مثل غيوم الخريف فاخذ مطر يأز داخلنا مثل الجروح.. ها اخيرا نحن نخرج من الحد اللامنتمي للوجود او العدم. كانت فرصة لي للبكاء على امي واختي وابـــي. بكيت حتى كادت جمجمتي تتفطر.

ابـــتعدنا وكانت هِمّت بترابها وامتدادها الغباري تشبه جرح قديم اندمل بتشوه... كانت السيارة تخطف المسافة، وكنتُ ارمق السماء من نافـــذة السيارة الصغيرة فلاحظنا وجود فاختة تخفق باجنحتها وتتبعنا.. قال ابو عماد وحميد وقوجانس:

ما اجملها من حمامة تتبعنا!

قلـــت لهـــم هذه ليست طيرا انما وردة تخفق حولي لوعة وحنين ووعد.

هكـــذا انـــتقلتُ مـــن بدائية هِمّت ووضوحها الى فخ الحضارة وشـــباكها المعقدة، كانت الكآبة تكبلني تماما فكنتُ مثل جثة تنـــزلق الى القبر.

النوم الثاني:

الخيول لا تعرف المدينة

الانتقال من البراري الى الارصفة، من التراب اللزج بسر التكوين الاول الى الاسفلت المغبر بلهث الانسان الصناعي الاغبر، هو انتقال من الصفاء الى الهذيان.

اول الاشـــياء الـــتي فاجأتنا في الاهواز: النخيل وعباءات النساء واللغـــة العـــربية، ولو منقوصة وفيها بعض الاعوجاج. لم نصدق اول وهلة اننا في منطقة ايرانية ولولا اليقين بعدم وجود طريق بري من همت الى البصرة لقلنا ان ابا عماد ضحك علينا وعاد بنا الى العراق.

توقفت السيارة ونـــزل ابو عماد في وسط السوق ثم عاد مسرعا وهـــو يحـــتظن اربعة زجاجات من قناني البيبسي كولا الاسود اللون. انفتحت عيوننا من شدة الفرح وكأننا حصلنا على ثمرة من ثمار الجنة. لم نـــشرب الـــزجاجات بـــالفم وانما كان السائل يتدفق الى القلب.. ياه ما اللذ الشراب البارد!

ضحك ابو عماد والذي كان يتفرج علينا:

- ((عرفت انكم مشتاقون لمشروب بارد فقلوبكم مثل الجمر))

في اللحقـــيقة اننا قد سكرنا من فرط النشوة حتى ان قوجانس ساح علـــى كرســـيه ثم غط في نوم ثقيل وكأن البيبسي كولا قد خلصه من هم ثقيل متوارث. عند ذاك عقب حميد وهو يجلس باعتداد وكأن الشراب قد اعاد اليه بعض الثقة: الان صدقت ان لاشيء مستحيل في هذا العالم.

دوّت ضحكت مجلجة مشتركة مني ومن ابو عماد:

– قنينة ببسي كولا تعلمك الحكمة.. ياسلام!

كـــنا نشتهي ان ندخل السوق ونمشي فيه فنعاود لأقدامنا ذكرى ان الارض واســـعة، لكننا خجلنا فوصلت بنا السيارة الى دائرة صغيرة مـــصبوغة جدرانها بالعلَم الايراني وصور الخميني والخامنائي وكلمات فارسية كثيرة، قال ابو عماد انـــزلوا هذه محطة اذاعية عربية الجميع هنا عراقـــي. كانت هذه المحطة الاذاعية الصوتية مركز اعلامي بدائي يديره شـــخص مهذب اسمه محمد الاهوازي مع رجال ايرانيون يشرفون على العمل بين الحين والاخر، كانت محطة بائسة بالفعل.

قدمـــوا لنا الطعام بكرم ومنحونا بعض الثياب فتخلصنا من تلك الازبال المهلهلة وبعد خروجنا من الحمام تغيرت هيأتنا بالكامل حتى ان الـــسيد محمـــد الاهوازي قال ان قوجانس يصلح الان ان يكون ممثل ســـفارة لدولـــة اجنبية، فرد عليه قوجانس بعدما تأمل نفسه طويلا في المـــرأة بانه لايتنازل عن رتبة امبراطور على اقل تقدير، لكنه بحاجة الى قنينة ببسي كولا مثلجة اولا!

وفي الحقـــيقة كان الامبراطور قوجانس هو اكثر الشخصيات التي حظيت بمحبة الجميع والذي استطاع ان يفتح الاسارير وتفريع احاديث سمر حتى منتصف الليل في حين اننا وصلنا الى المحطة الساعة الثالـــثة عـــصرا. لكـــن تلك الليلة بكينا كثيرا ايضاً حينما انعطف الحـــديث صـــوب الذكريات فقص علينا احد العاملين ذكرياته في سجون حكومة السرسرية، كما يسميها، وكان ابشع مقاطع القصة هو ذلك القسم المرتبط بتعذيب اصحاب العاهات والصبيان الصغار والنـــساء. اطـــرق ابـــو حسين الى الارض وقال وسخونة الحروف تتصاعد في اجسادنا وعروقنا:

كنت سجيناً في ((مركز تحقيقات المخابرات)) وهو مركز رهيب للتحقيق والتعذيب بناه الصرب اليوغسلاف لرفيق تعاليم الموت صدام حسين، وكان في هذا المركز زنـــزانات مساحة كل زنـــزانة متر مربع واحد – أو أكثر بقليل – وكانت زنـــزانات مصبوغة باللون الأسود: الأرض.. الجدران.. السقف، ظلام دامس وزنـــزانات أخرى مصبوغة باللون الأحمر.

الأرض.. الجـــدران.. الـــسقف، وفيها حنفية ماء فإذا فتحت الحنفية ترى كأنك تسبح في بركة من الدماء.

صمت ابو حسين ثم اضاف متباطئاً:

أخـــرجوني في احد الأيام لتنظيف الممر رغم ما كنت أعانيه من آلام الـــتعذيب، فرأيت امرأة تكشف ملامح البؤس والانكسار ومحاولة الاحـــتفاظ بالعفة إنها من أهل الجنوب ومعها ثلاثة أطفال ادهم طفل رضـــيع وبـــنت عمرها سبع سنوات وطفل عمره اربع سنوات وبينما كنت أنظف الممر جاء ضابط وسأل المرأة:

أين زوجك؟

فقالت له مرتجفة:

لا ادري عنه شيئا ولو كنت اعلم بمكانه لأخبرتكم به.

لكزها الضابط بحذائه الثقيل وقال: يجب أن تخبرينا يابنت الكلب

فقالت له وعيونها منكسرة وراجية ومترحمة:

والله لا ادري عنه شيئا ولو كنت اعلم لأخبرتكم به. أن زوجي ياحضرة الضابط، صاحب غيرة وحمية ولو علم بأن زوجته وأطفاله هنا لسلم نفسه.

هنا سحب الضابط الطفلة ذات السبع سنوات من ظفيرتها الناعمة الجميلة بكل بقوة ثم وجه رصاصة لرأسها فتناثرت الدماء وقطع اللحم

في المكان، مثل تمشم مزهرية، اخذ الجسد يتراقص على الارض، وعلى صـــوت بكاء الطفلين الصغيرين. لم يكترث الضابط القومي العروبـــي لشيء، حدق بقوة بوجه الام المسكينة وزعق مثل كلب:

قلت لكِ ياعهرة أين زوجكِ؟!

فدهشت المرأة وهي تصرخ: لا ادري.. لا ادري

هنا سحب الضابط الطفل الرضيع من صدر الام وبحركة شيطانية ضـــرب به الحائط فتناثر مخه، ثم القاه في صدر الأم، بكل برود وهدوء أعصاب:

- ها.. ما اسمعت صوتكِ.. أين زوجكِ؟

صارت المرأة مدهوشة وشبه مجنونة وهي تردد:

لا ادري.. لا ادري.. بالعباس ما ادري..

حـــتى الدموع جفت من مقلتيها ولاكن هل يكتفي هذا الشيطان العفلقي.. هل تدب الحرارة بقلب حولته الرعونة الى حجر اصم..؟

كـــلا.. فقد مسك الضابط الطفل الثالث من قدميه وبقوة ضرب بـــه الحائط فتهشمت جمجمته وتناثر مخه أيضا وهنا جنت المرأة حقيقة وباتت خارج العالم

دخـــل الـــضابط غرفته ونادى على المنظفين أن احملوهم، فجاء المنظفون بعربة أوساخ ووضعوا فيها الأطفال الثلاثة وأمهم ونقلوهم.

لولا هذه الحكاية لنمنا نومة لاتتكرر حيث اصبنا بخدر لذيذ وممتع نتـــيجة نومـــنا علـــى الفراش وحصولنا على وسادات رغم ان المنادر والفـــراش لم يكن سوى قطعة اسفنجية قليلة السماكة والوسادة قطعة قماش تم حشوها بشكل بائس وفقير. لكن كلما غفيت ظهر لي مشهد قـــتل اطفـــال المرأة الثلاث.. لم يكن العراق سوى طفل صغير وهولاء العفالقـــة هشموا جسده، فبات بعيدا عن الحضارة، جسد سيبقى يعاني

الكـــثير من الاصبات فهو لا يحتاج الى تصليح عطب او تطبيب جروح وانما الى قيامة ثانية وخلق جديد.

استيقظنا متأخرين وكانت لحظة الحرج هي الصلاة فالجميع يصلي صـــلاة جماعية، قوجانس يريد ان يصلي في الصف الاول خلف الامام مباشـــرة، وانا بت الان لارغبة لي في ان ارفع طيزي واخفض رأسي، قلبـــي لايطاوعني على مزاولة هذه الهيئة المضحكة، يقولون ان الصلاة مقابلـــة مع الله لماذا لاتوجد طريقة اكثر احتراما لهذه المقابلة، فالمخلوق اكرم المخلوقات والرب اكرم الارباب؟!

اكثـــر الامور التي صدمتنا هي وجود مراحيض نظيفة، لقد فقدنا في همـــت تلك المزية الانسانية وكنا نتآخى مع الحيونات. لقد اشعرتنا تلك المراحيض بانسانيتنا.

كـــنت اتأخـــر في المرحاض ثم اغسل وجهي واذا ما داهمني احد اوهمه باني اقوم بالوضوء بصورة صحيحة، ثم احضر متأخر وابقى ساهما واذا شـــعرت بان احد انتبه لي اقوم بتحريك شفتي بطريقة توحي باني امارس الصلاة فعلا وبخشوع ايضا!

تمنيـــنا ان نتغدى لكن ابو عماد قال علينا ان لانـــزاحم الجماعة فقد يحضر مفتش ايراني وهم لايقبلون بوجود احد غير العاملين، اعتذر منا السيد محمد الاهوازي وعانق البقية قوجانس بحرارة.

في الطـــريق عاتـــب ابو عماد حميد على فظاظته مع السيد محمد الاهـــوازي وبقـــية العاملين. فحينما انتبه محمد الاهوازي الى ان حميد يحمـــل ثقافة جيدة طلب منه ان يبقى ويعمل في المحطة الا ان حميد رد بانـــه لايستطيع العمل في دائرة اعلامية تعمل لصالح الايرانيين بالاضافة الى كـــون سمعتها سيئة فمنها تم قراءة تلك الرسالة المشبوهة التي أودت بحـــياة آيـــة الله محمد باقر الصدر، وهي رسالة تم اذاعتها مخاطبة باقر

الصدر بان لايغادر العراق، رغم ان الصدر لم تكن له نية الخروج، وقيل ان الرسالة تم حبكها من قبل جماعات ايرانية كانت تخشى ان يخرج باقر الصدر من العراق فيزاحم مكانة الخميني، وقيل ان الرسالة تم حبكها من قبل منظمة العمل الاسلامي الطرف الثالث في المعارضة العراقية والتي لها ارتباطات مع المخابرات الايرانية وهي جهة مكروه لكون اتباعها كانوا يوشون باتباع حزب الدعوة داخل سجون صدام حسين.

قبل حلول الظلام دخل بنا ابو عماد الى معسكر تابع لفيلق بدر، فوجدنا اكداس من البشر تم تخميرهم بين رياضة صباحية ومحاضرات عقائدية كي لايكون تحرير العراق من سلطة حزب العفالقة اهم من ولائهم لنظرية ولاية الفقيه.

بجنب السلاح كانت تتكدس كتب التصوف والاخلاق، اسبوع واحد استطاع به حميد تمييز كثرة اللواطيين والذين يعانون من انشقاق في الشخصية وكثرة المصابين بالكآبة الحادة. وبسبب حميد ايضا خرجنا من فيلق بدر، القسم المسمى بفرقة الرسول، بمعركة حيث وجد حميد اكداس من كتب زعيمي منظمة العمل محمد تقي المدرسي والشيرازي، كتب مكدسة يقوم البعض الذين يسمونهم بـ التوابين (وهم الاسرى العراقيون سابقاً) باحراقها، غضب حميد وقال ان فيها اسماء الله وآيات قرآنية.. كيف تحرقون الكتابة.. الكتب لاتحرق.

في الطريق لاحظنا حيرة ابو عماد في مرآة السيارة الامامية، اعتذرنا منه لكثرة مشاكلنا، تنهد وقال سوف يعرضنا على صديق يبيع الخضار في سوق الاهواز وانه سوف يعود الى همّت لحاجة الدكتور ابراهيم هناك الى بعض الادوية. ذهبنا الى منظمة الصليب الاحمر فحلمنا السيارة، وبصعوبة ركبنا في السيارة لكون الكراسي كانت مملؤة

بكـــراتين الادوية. عند الساعة الواحدة ظهرا وصلنا الى سوق الاهواز، ركـــن ابو عماد سيارته وتبعناه للوقوف على صاحب مسطبة مسطيلة من الخشب متسخة مملؤة بعدة انواع من السكب، كان الرجل افطس الانف شبه اسود.

لما اقتربنا هطلت رذات من المطر فابتسم وهو يفتح ذراعيه ليعانق ابا عماد:

– اهلا ابا عماد... ابشارة خير الجماعة

بعد العناق قال ابو عماد وهو يشير الينا هولاء مساكين بلا اهل ولا مسكن حاول ان تعينهم تكسب ثواب. ثم سحب ابو عماد الرجل وراح يـــتحدثان بعـــيدا عـــنا، دقائق ثم عاد ابو عماد ووجه مشطور بابتسامة مصطنعة:

– هذا رضا حاج، سوف تكونون عمالا عنده.. عذروني ياجماعة مهمتي خلصت، صافحنا ثم سار نحو سيارته فهرولت نحوه:

– مـــشكور علـــى هذا الجهد.. تعبناك ويانه.. بس امانة لاتنس طمأن الشيخ صالح والزايرة ناظمية ووردة والاستاذ حسين.

حرك ابو عماد رأسه وقال: اكيد طبعا.. ثم ركب السيارة وحرك المفـــتاح فـــصعد صـــوت المحرك هادرا بعدها انطلق تارك لنا الدخان والـــبلل.. كانـــت الكفـــوف مقبوضة مشدودة وكأننا نريد ان نلطم الهـــواء.. وكانت القلوب مثل اكف مفتوحة تستجدي السرور، ساعة اذن خدشـــة قلوبنا هذه السيارة التي فرت بمرحلة من العمر.. اخذت الـــسيارة تغيب.. بقينا طويلا تحت المطر الذي اشتد وتكاثف والسيارة اختفت مثل فراشة تسرق رفيف القلوب ساعة المطر.

* * *

اعـــدى عدوك هو المجهول، حيث كل شيء يباغتك، حتى الهواء العابر يتحول الى مكيدة.. الى جرح.

كـــم تمنيـــنا لـــو نطـــق رضا حاج بكلمة، لو خاطبنا حتى ولو بشتيمة، ما اقسى الحياة بدون كلام!

وقعنا في قبضة وحووم وكآبة، تعبنا من الوقوف فخترنا ناحية من الرصـــيف وجلـــسنا، واخذت البطون تنطق بدل الافواه، ها قد بدء الجوع يظيف مساحة اخرى من ارض الفضيحة.. الروح بأكملها باتت عبئا تحت وطأة الاحساس بالوحدة والوعز.

- عـــذروني ياجماعـــة.. (ببخشي) كما يقول الفارسيون، بس مـــثل ما انتم شايفين هنا باب رزق وصعب ترك الزبائن خصوصا وان بضاعتنا سمك اذا تأخرت تتلف وشمس الاهواز غضب من الله.

- ولا يهمك رضا حاج، قال حميد بصوت مجروح.

- هذه عربانة السمك عليكم تنظيفها بعد فرز السمك الجيد عن الـــسمك الذي بدء بالتلف، اربطوها بهذه السلسة بذاك العمود حيث يـــوجد مغـــسل للاهـــوات وهو غرفة مفتوحة تحتوي على حنفية ماء ومـــروحة، تـــستطيعون الاستفادة منها فهي غرفة مفتوحة على طول الوقت ويخاف منها الحرامية واللصوص، فاطمأنوا.

وكأنه اراد توضيح ان ذكرى الموت اقوى من الضمير والقانون، هـــذا ان وجدا بالفعل حيث الضمير اختراع الفقراء والقانون اختراع القراء.

قـــال رضا حاج كلمته الاخيرة بابتسامة مفرطة تشبه الشتيمة او التشفي. شعرتُ بدوار وانا اتطلع الى الغرفة التي يشير اليها رضا حاج، رأســـي كان يؤلمني لكن الخطى ثابتة وهي توقع علامات صبر طويل في ســـجل هذا المكان الاول من درب المتاهة. لم ننتظر الليل وانما تقدمنا

نحوه برضا الانتحاري ساعة الصفر، تقدمنا صوب غرفة غسل الاموات مـثلما يـتقدم الاعـزل صوب العدو بلا سلاح او درع او شهادة. لسبب ما توقفت اقدامنا على عتبة الباب ثم ولج قوجانس لوحده مثلما تلج سكين صدئة في جرح قديم.

تبعـناه ودخلنا ومن دون سبب واضح ترطبت العيون وارتجفت الايـدي وكـأن تيارا كهربائياً يراقصنا من الرأس الى خمص الاصابع. تطلعنا في الغرفة مثلما يتصفح المتهم بقاعة المحكمة.

كانت غرفة عادية واسعة يتوسطها مستطيل يرتفع نصف متر عن الارض غلف طابوقه بقطع من الكاشي الابيض الصغير المربع الشكل. وفي الجـدران اربـع حنفـيات ماء وفي الزاوية اسندت ثلاث توابيت بـشكل عمـودي، بقي قوجانس يرمقها بصمت مهيب، هيبة الموت تغلـف المكان، واخذ الخيال يصور لنا مئات الصور لموتى رحلوا بغير قناعة بساعة الغياب.

المـروحة الكهربائية الصدئة هي فرحتنا الوحيدة رغم ان المروحة نقـيض المدفئة والشتاء على باب القلب والروح مثقلة مثل جمل جريح يبرك حيث هموم العالم واساطيره فوق سنامه.

– هل انتهت الحياة... راح انموت.. راح انموت.. اويلاه.

اخذ قوجانس يضرب رأسه ويلطم. فصاح به حميد:

– ولـك انجـب.. اسكت، العمر بعده طويل ورهانه ماخلص، العجز شيطان والجهل ملاك. نحن الان عاجزين عن فعل اي شيء لكننا نجهـل اي شـيء في هـذه المدينة وهنا الدنيا لاتحب الملائكة لاتحب الدموع.

ثم اخذ حميد بتلابيب قوجانس وهزه:

– على مود انصير اوادم، لازم نصبر ونتعلم.

- انصير حرامية يعني، رد قوجانس وعيونه مبلولة بلهاء

ابتسم حميد: لا مانصير حرامية ولصوص، هو احنا لو نعرف انبوك ونصير لصوص وحرامية، ما وصلنا الى غرفة تغسيل الاموات.

جلس قوجانس مطأطأ الرأس فجلس بقربه حميد ومسّد شعره:

- لاتزعل قوجانس من اصيّح عليك، بس الغربة اختبار ولازم نتحمل ونظبط نفسنا.

برد قوجانس لكن حمى اصابتني: لا.. لا ليس العجز شيطان والجهل ملاك. العجز خيانة والجهل مذلة. لا بد من الصبر والا لن التقي بوردة مرة اخرى.

أقلتُ وردة؟!.. آه كم هو عميق جرح الحب في القلب. هل قلت الحب؟!... هل بت من اهل الدنيا.. هل خرجت من الحد المتوسط بين الوجود والعدم فباتت الاشياء متمايزة؟!

هل تعلمت الكلام اخيرا، لكن اللغة لاتكسر قوانين البعد، ووردة بعيدة الان، لماذا حينما يحضر الحبيب تضيع اللغة وحينما تنضج اللغة وتكتمل نجد ان الحبيب قد صار بعيدا.

كنا متعبين لكن الجوع متسلط ظالم وغشوم لايعرف الحوار ولايرضى بالمخادعة. وهاهي السماء تفتح عيونها فتنهمر سيول الرثاء.. وسهمت مع نفسي: في همت الصيف وفي الاهواز الشتاء فمتى يأتي فصل المطمأنين الربيع ام ان في كل شيء فواصل طبقية حتى في الفصول كما كان يقول استاذ حسين حينما يثرثر مع نفسه ايام شجاراته مع اصحاب الخيمة السوداء؟!

لانعرف كيف نمنا مع دوي مدافع الجوع في بطوننا، اتى الصباح اذن. والصبح في الاهواز مهدد هو الاخر فما ان تبدء اشعة الشمس

بالظهـــور حتى ترتفع حرارة ولزوجة، نحن في بداية الخريف والطقس هكذا كيف حال الصيف هنا اذن؟!

غـــسلنا وجوهـــنا المصفرة ومسحنا شعرنا وصفطناه كطريقة تعويـــضية عـــن المـــشط رغم ان الشعر كان يصعب ترتيبه فنحن مـــنذ زمـــن لم نـــشاهد اختراع المقص العجيب كما ان الماء بارد كالصقيع.

وقفنا امام رضا حاج الذي وجدناه يرتشف استكان شاي خفيف اللون لكنه حار ورائحة الهيل تعذب انوفنا. كان يجب ان نقدم الخطوة الاولى نحو العبودية الجديدة وننتقل من اصفاد المكان في همت الى اصفاد الانـــسان. ومـــتى كانـــت الخطوة الاولى هو حمل الثلج وتفريغه على الـــسمك الـــذي وزعناه على المصطبة الطويلة شعرنا ان الدم تحول الى تيزاب يغلي تحت الجلد ثم تحولت العروق والشرايين الى جروح عميقة وحـــادة فـــرط البرودة.. الله يعذبنا بالطقس من فوق والانسان يجلدنا بالثلج من تحت.. يالي حكمة الكون البليغة!

حاولـــنا بكل جهد ان نتجاهل الجوع والاعياء لكن عبثا اخذنا التعب، حتى عملية التنفس متعبة.

– راح اجـــيب لكم خبز و((بنير)) بس تتعدى الساعة العاشرة، هكذا قال رضا حاج وهو يجمع المال ويتلمظ بعيون صفر مفتوحة مثل مبولة عامة.

هـــا قـــد اتى الطعام وكان عبارة عن قطع من الخبز كبيرة وقطع صـــغيرة مـــضحكة تسمى جبن والتي هي البنير حسب لغة العجم. لم نكمل ازدراد اللقمة حتى اتت امرأة لتشتري سمك ثم تبعها رجل فركل رضا حاج طاسة الماء التي امامنا وصاح:

– تاكلون زهر مر، كوموا حللوا الي ابطنكم.

عــرفنا بعد ذلك ان ((زهر مُر))، معناها السم. ياليت ياسيدي يتكــرم الله ويقلب الطعام الى سم كي نأكله مرة واحدة ونرتاح بدل هذا الجحيم.

كلمــا نقص السمك على المصطبة يقوم قوجانس ويخرج مجموعة اخــرى من الزبيل، وهو وعاء مصنوع من سعف النخيل. لاحظت ان يــدي قوجانس تخر دما بفعل الاصداف الحادة والعظام التي تبرز بفعل تــراكم الــسمك بعضه على بعض وخلطه بالثلج. لكن قوجانس غير مهــتم، اعتــصر قلبــي ألماً وكدت ابكي. حتى المجنون عقل من شدة الكرب والعذاب.

الساعة الثانية عشر وقبل ان يعلو صوت المؤذن بدقيقة انتهى جميع الــسمك. لم يستطع رضا حاج الصمود واخذ يتراقص من شدة الفرح والجذل. ثم تنفس بعمق وهدء:

– غــسلوا وتــنظفوا وهاكم خمسمائة ريال عوض تعبكم وحظ السعد الي جبتوه وياكم.

لقد عرفنا العملة الايرانية منذ همّت وهي يكتب عليها ريال لكننا نحــذف صــفر من الرقم فتكون العملة تومان الاهواز تتعامل بالريال وباقــي المحافظات بالتومان. ها نحن نملك مالا اذن فورنا صوب اقرب مخبــز فقد كنا نفور من الجوع. واعجبنا ان في ايران عشرون نوعاً من الخبز. اكل كل منا ثلاث ارغفة حارة فقال حميد:

– ها قد شبعنا فلنذهب الى الصلاة.

نهض قوجانس مبتسماً، بينما انا بقيت مكاني.

– اذهــبا ســوف انظف المصطبة وزبيل السمك واربط العربة بالسلسلة والقفل واعود الى غرفة المغتسل.

تأملني حميد:

– لا بـــد ان تشكر الله الذي انقذنا واشبعنا وآوانا والا فسوف يصب علينا العذاب... لؤي.. ان شكر صاحب النعمة واجب.

ابتسمت:

– اذا كان شكر المنعم واجب فالكفر بالجلاد أولى.

صفع حميد جبهته بقوة: طرااا

لـــك شتكول.. الله جلاد!!.. راح اتنـــزل السما فوق رؤسنا، استغفر ربك ولك

– حميد.. ارجوك لن اصلي لرب ادخلني الى هذا السجن الكبير.. خليني ابراحتي، اخذ قوجانس وروح صلي.

– انا خايف عليك بعدين الله ايعذبك

– يعـــني الله مـــثل رضا حاج ايطيح حظنا على مود قطعة خبز وشوية جبن وشمة هواء؟!

– لا ولك لا.. القضية اكبر واعقد.. مسئلة الرب أهواي جبيرة وانت بعدك صغير.

ســـيكون هـــذا الحـــوار هو حوارنا اليومي، حوار سوف يطول ويتشعب ويتعرض لتقلبات كثيرة وعجيبة.

عـــدت الى ســـاحة السوق ورأسي مثقل بمحاججة عصيبة: هل يـــوجد الله فعلا؟!.. ما فائدته ونحن نتلقى كل هذا الكرب.. هل كان يعـــي مـــسؤلية الخلق ام انه مثل اب مستهتر ينجب الابناء بلا اي ثقل ضمير عما سيؤول اليه مستقبلهم؟!

هل هذه الاسئلة كفر حقاً.. سيكون ظلم مرتين ان آمن برب لا يحق لي السؤال عنه.

اهمكـــت في تنظيف العربة والزبيل هطلت امطار خفيفة انشرح صـــدري برائحة التراب الرطب. كان رضا حاج على كرسي يحدث

صـــاحب بقالية تقع امامنا بخطوات نـــزيرة. ابتسم ولوح لي ثم هرول نحوي:

- لم تذهب للصلاة اذن؟!

لا اعرف من اين جائتني الصلافة:

- مثلك اغاتي حاج رضا

انتظرت عاصفة غضبه لكنه اقترب وطبطب على كتفي:

- ليس لديك سوى هذه الملابس، كن محدا في عملك كي تبدو نظيفا.

اردت ان اجـــيب وارد فقد شعرت باهانة جارحة. هذا المسخ لو كان لديه بصر لشم قذارة ضميره المتفسخ... اردت ان اريه اي بركان يغلي داخلي، الا ان رضا حاج رفع صوته بطريقة استعراضية:

- اولاد القرود.. هولاء المعممين افسدوا حتى الهواء.

ولما رأى اثر الدهشة على وجهي:

- اي نعم المعمم هنا بدل البعثي اللابس زيتوني في العراق.. مثل ابـــو دشداشة قصيرة ولحية طويلة في الدول الاخرى.. آخ من الدجل آخ.

مد رضا حاج يده بجيبه واخرج سكارة واخذ يعب الدخان عبا.

سرح بعيداً ثم ضرب يده على فخذه بقوة: طرااا.. آخ منكِ دنيا آخ.

مـــا ذا اقول انا اذن.. آخ يا دنيا آخ، وهل ينفع شتم الحياة مع استمرار التعذيب؟!

شـــعرت ان رضـــا حاج له وجه آخر، وجه ثاني حقيقي، وجه بشري غير هذا القناع المخيف النحس الذي يحمله. انه يكابد معنا حمل هذا القناع اذن.

ابتعدت عنه من دون توديع فقد سرح رضا حاج بعيدا. تسلل به زورق الذكرى الى هناك مرة اخرى. وكيف ينسى؟!

كان شاباً لتوه يتمتع بعضلات نبهت جميع فتيات شارع نجاتي آغا اليه، ذلك الشارع الذي لايقطنه سوى اصحاب البيوت الفارهة العالية. لقد تمتع بكثير من البنات، ارخت اصابعه الكثير من تكات اللباس الداخلي والسراويل والبنطلونات وتنعمت يداه وفمه وجميع اعضائه بتلك الاجساد الطرية حتى وقع في الحب. فالمبالغة بالجنس اما ان ينتهي بالطغيان او العشق وكلاهما نوع من الجنون.

لقد احبها.. نعم احبها. احب تلك الصبية السمراء بكل جوارحه. تلك اللبوة الاهوازية التي وقفت امام رعونة الشهوة ونحتت منها هيام روحي متألق.

وكان الزمن حاذق كعادته في رسم مآربه العجيبة فقد كان اسمها هيام تحديدا. صدق او لاتصدق فمتى اعتنى الزمان بالذين يصدقون او الذين ينفون؟!

كان طريق المدرسة هو النهر الذي يجعل قوارب الاجساد تلتقي فيرمي كل شباكه حيث الجميع صياد وطريدة.. لم يكن رضا حين ذاك هو رضا حاج بل رضا المغرور او ((رضا البنات)) كما كان يسمى وكان يبتسم ويفتخر رغم خوف امه عليه بل وخوف زوجة ابيه ايضا. فالشيخ حاج قاسم العميدي صاحب اكبر منزل واوسع ديوان ظيوف والذي لايفتخر بماله وشهرته وعزوته وانما بعشقه لاكبر صورة للرئيس العراقي صدام حسين وضعها بقرب صورة تمالثلها للرئيس المصري جمال عبد الناصر وفي الوسط صورة مرسومة بيد فنان مغمور تمثل اشهر شيخ في تاريخ الاهواز انه الشيخ خزعل. كانت تلك الصور قبلة حاج قاسم العميدي صاحب اوسع

معلومات عن تاريخ الاهواز وايام العرب الوحدوية الاتية بلا ريب والتي يجب ان يكون للاهواز نصيب منها فهي عربية لاعلاقة لها بارض ايران. حاج قاسم العميدي تزوج ثلاث مرات توفيت زوجته الاولى اثناء الطلق ولم يرزق من زواجه الثاني والثالث بغير رضا فكان الابن الوحيد المدلل. كبر رضا وكبر معه ذلك التقدير العجيب الى درجة الرهبة لصدام حسين، ولا ينسى رضا كيف ان والده لم ينم اياما طويلة وهو يجمع الرجال من حوله لمساعدة جيش صدام الاتي بعد رفض الاهواز لثورة الخميني، بعد ان تكشفت مآربها بعد سقوط الشاه.

لقد كان صدام الامل الوحيد بعد ان جأء طالقاني ممثل الخميني ومأ الشوارع بالجثث. لكن هيهات ان تهزم عشائر الاهواز لكن انما هو الانتظار الانتظار فقط كي يتم اخذ الحساب كاملا وتقوم دولة الاهواز العربية المستقلة. ايام وصول الجيش قريبة يؤكد حاج قاسم العميدي وسوف يكون العرس عرسين، يضحك ويشير الى ابنه رضا. ويخبر رضا هيام فتحّمر وتذوب ويشتعل جسده بالشوق وحينما يحاول الالتصاق تهمس نافرة مثل فرس برية:

– اصبر.. اصبر.. هاي اشبيك؟!

لقد كانت لغتهم العربية اسلم ذوقاً واكثر وضوحاً في الايام البعيدة تلك.

تشتعل مصافي عبادان النفطية ويضيء الخليج ويكاد صوت المزنجرات يسمع وترقص الجدران، هاهي الاهواز سوف تعود عربية. الارض تهتز بالاحذية الثقيلة والعلم العراقي بنجومه الثلاث يلوح لكن ما بها طيور الاهواز تزعق ثم تتساقط؟!.. ما بالها الاشجار تميل والازهار تذبل والشمس تنكسف؟!

العشائر الاهوازية تخرج والنساء تزغرد ثم تبدء امطار النار بالانهمار جيش صدام وجيش الخميني ومدينة العصافير والانهار في الوسط، تستحاذبها نيران التشابه بالحرف، وتسحبها نيران القرب الجغرافي، تتقدم الجيوش وتلتقي لكن جيش صدام اصلب واقوى واكثر خبرة تزغرد النساء ويرقص الرجال، تمرول العشائر لتقديم الشكر للجيش البطل محرر الاهواز وتذبح الذبائح وفي نهاية الصخب يقول العقيد الركن العراقي اسعد بطاح التكريتي:

– لقد حرر الرجال الارض العربية من الطغمة المجوسية بس تعبانيين ابو رضا والرجّال ما تريحه غير المرّه.. أريد نسوان

يعم الصمت، الفرحة تنقلب غصة وبدل الخراف تم ذبح الرجال وكان اولهم حاج قاسم العميدي بعد ان بصق على تلك الشوارب الغليظة التي تغطي فم اسعد بطاح التكريتي. كانت تلك ليلة الدم والندم. هاجت العشائر في اليوم التالي للاخذ بثأر كبير القوم لكن ما تفعل بنادق قديمة بوجه دبابات ومدافع وجيش مدرب، يومان تجمد فيها عقل رضا وهو يرى امه وزجة ابيه تنوحان وتلطمان وقف في غرفة الظيوف الكبيرة الواسعة، تأمل الصور الثلاث المعلقة طويلا ولم يستطع ان يجعل عقله منظما. حتى هيام اتت مع امها وكانت اسطورة من الجمال بالثياب السوداء، لكن قلبه كان يدق بنبض غريب لم يألفه صدره من قبل. لم يجب باي كلمة رغم ان نظراتها قالت الكثير ووالدتها تحدثت معه طويلا.

ولو عرف لكان اجاب، اجاب باي شيء سوى ان يجعل الزمن هو الذي يقدم الاجوبة.

يتذكر رضا المغرور، رضا البنات ذلك اليوم، فقد كانت شمس الاهواز محجوبة لاول مرة في تاريخها وهي التي لاتغطيها سحب الشتاء.

لم يصح على صوت ديك او آذان مسجد، وناقوس كنيسة، وانما على دفـــرات بـــساطيل الجنود وهي تحطم الابواب فتهرع امه الى دفعه الى الهـــرب مـــن الباب الخلفي كي تكون هي وضرتها الترس البشري امام تعري الفكر القومي وتجسيد ذهنية البطولة النضالية، هكذا رحلت الام واحتـــرق البيت، اما الهدم وقتل الحبيبة فـــ ((سباه)) وحرس الثورة الدينية العتيد سوف يتكفل بذلك ولن يجديه ان يكون اول من نظم كتائب تقاوم الجيش الصدامي. اهذا هو التحرير ام ان هذه هي الثورة الدينية؟!

ســـوف يبقـــى كل شيء لايستحق الاجابة بعد ان بقي الشاهد الوحـــيد علـــى مقـــتل امه وذبح حبيبته. لكن هل للسلطة حد فنتهيّ اليه؟!.. لا.. فلقد حاولوا الزج به في حرب كلا طرفيها يستحق الثأر، كلا الجانبين هو العدو.

مـــا هـــو اغرب ان الاهوازيين رغم كل تلك المجازر التي وقعت لازالوا يعظمون صدام حسين ويكبرونه!. قد يكون هذا بسبب طريقة الانـــسان الغـــربية في صـــنع الاساطير.. هناك حاجة للكذب حتى لو بكـــذب الانسان على نفسه بمدح جلاده. ليست هذه اول مرة يمجد الايـــرانيون الجـــلاد ويصنعون منه اسطورة فخر وسلام. فالاسكندر المقـــدوني هجـــم علـــى ايران وحرق عرش الملك جمشيد ومرغ انف الخخامنـــشين بالتراب، ودمر الكثير من معالم ايران الحضارية، لكنه مع ذلك لم يتحول الى شخصية مبغوضة. فقد بقي الاسكندر رمزاً للبطولة ((قهرمان)) بلغة فارس. بل حولوا صاحب المجازر الكبيرة الى شخصية مـــسالمة محـــبة للـــسلام. حولوا الشخصية اللوطية الوضيعة النفس الى شخص مسلم يحب علي بن ابـــي طالب.. اليوم اهل الاهواز يسمون صـــدام حسين قهرمان فهو كان مثل الاسكندر كسر شوكة الفرس.. حتى لو كان هذا الكسر هو كسر للاهوازين أولاً!!

عـــدتُ الى غـــرفة المغتسل فوجدت حميد وقوجانس قد سبقاني، كان قوجانس نائم وحميد متعب. تلاقاني بصوت قريب من البكاء:

– لقـــد واتـــت قوجانس نوبة صرع ونحن في الصلاة فتخربطت الصلاة ولعننا الجميع.

– اذهب اذن من الان لوحدك

– لا لن اذهب بعد الان

– لماذا؟!

– هولاء الشيوخ اوسخ من الشيطان..

صمت ثم اكمل وهو مطرق الرأس:

– تـــصور قـــضى الشيخ خطبته في الكلام حول حكمة عمر بن الخطـــاب: لا هم كهم العرس ولا وجع كوجع الضرس، وحكمة علي بـــن ابـــي طالب: لا هم كهم الدين ولا وجع كوجع العين. ثم اخذ الامـــام يتندر على الاول لصالح الثاني.. شنو قابل علي وعمر اطفال لو لازم نحول بيت الله الى مبولة افكار وحقد؟!!

ثم أخذ حميد يهز رأسه ويضحك.

– لماذا تضحك؟!.. سئلته فاجاب وهو يبتسم:

– يعـــني جاي اتخيل فد معركه طولها الف وخمسمائة سنه جيش ايدافع عن ضرس وجيش ثاني ايدافع عن العين، قابل انفصل الجسم مثل ذبيحة خروف كل جار الهم فد شي وكل قرابة لها جزء

دام ســـكون طـــويل، لكـــنه خفيف مثل بلاهة الغبـــي ساعة الامتحانات.

– تعرف لؤي لازم انوفر كم تومان نشتري به مدفئة نحمي عليها المـــاء كي نغتسل.. اصبحت اجسادنا زرقاء ونحن نغتسل بالماء البارد وهذا قوجانس يسعل بشكل مستمر اخاف عليه يمرض هل المسكين.

قضينا العصر بعد ان نمنا قليلا نبحث في الاسواق عمن يبيع مدفئة قديمة فلم نجد مدفئة بأقل من مئة تومان، اذن علينا ان نصبر اياماً. في الليل جلسنا نغني تعبنا ثم سمعنا جلبة وحركة وصوت نحيب نسوي وبكاء دقيقة واذا بالباب يفتح: رجال يحملون جنازة

– هل تعرفون تغسلون الميت؟!

ثم انتبه الرجل الاشيب:

– ماذا تفعلون هنا؟!

اعتذرنا وقلنا باننا غرباء وليس لنا احد في هذه المدينة. سكتت النسوة يبدو انهن اكتشفن مصيبة افجع من الموت وان الموت ليس كارثة وانما مفتاح المشكلة.

قلت لهم انزلوا الميت لكن اجلبوا لنا مدفئة كي نسخن الماء فلا استطيع تغسيله هكذا. بدون كلام انزل الشبان الاربعة الجسد، وكان رجلا عجوزا بديناً عظيم الكرش. بقي حميد مدهوشاً وهو يراني اغسل الميت وآمر اقاربه بقلبه ذات اليمين وذات الشمال، كان في الغرفة مادة الكافور فاخذته ووضعت شيء منه على الجبهة وراحة اليد والركبتين واصبعي القدم وهما مواضع السجود في الصلاة لدى المسلمين. حينما نتهيت تقدم الرجل الكبير ووضع في يدي مئتي تومان، اسرعت دقات قلبي بشكل عجيب وفترة عني ابتسامة رغما عني.. هل يحق لي الفرح حقا بمدفئة صدئة ومئتي تومان ثمن وجبة واحدة متواضعة مقابل رجيل انسان حتى لو كان عجوزاً خرف.. ام ان هذه هي الحياة فلا نقبض شيء الا بفقدان آخر.. اي تكامل هذا؟!!

ليلتها فكرت بان هذه اول مرة وآخر مرة اقوم بمثل هذا العمل، لكني خالفت كلمتي وكررته لكني لم اقبل باخذ شيء فاتتنا الاطعمة من كل حدب وصوب، خصوصا بعدما اشيع عن بركات قوجانس

بفعـــل ملاحظة صاحب البقالية التي امام مصطبة السمك، فلاح نجاتي كـــان يـــصيح اذا مرض قوجانس لايباع من السمك الا النصف واذا حـــضر فالبـــيع وفير. فاخذ اصحاب البقاليات وباعة الاحذية يرشون بركة قوجانس بحلويات والشاي حتى بلغ الامر ان امرأة ثلاثينية العمر اقتـــربت من قوجانس وشقت جزء من قميصه النتن وهربت مسرعة. اصـــبح قـــوجانس رمزا للبركة والخير والحكيات العجيبة فزوجة فلاح نجـــاتي انجـــبت توأم والمرأة التي شقت قميص قوجانس عادت بقميص جديد وطعام بعد شهر تقول وتزغرد وتصلي على النبـــي الذي سهل بـــبركة قوجانس ولادة ابنتها التي في كل مرة تطرح الولد حينما يبلغ الثمانية اشهر. الامر تطور فقوجانس يحضر ساعتين والبقية تأخذه نساء غـــريبات الى اغـــاراض سرية عاجلة. حتى غرفة المغتسل التي نقطنها انصبغت بالحناء وقطع القماش الاخضر.

في يـــوم ونحن قد انتهينا من العمل رأيت في الشارع جمهرة نسوة واطفـــال يتطلعون الى اعلى كان قوجانس يتشبث بنخلة لتوها تتثاقل بحبيبات خضر، فقد ولى الشتاء بعد ان اخذ جزء وفير من جلودنا قبل ان نحصل على اغطية وبطانيات قديمة رثة لكنها كافية لدفع برد كبير. كان بنطال قوجانس مثقوب وممزق من الوسط وليس تحته شيء فتدلت خـــصيته ورأس ذكـــره. كانـــت النسوة تتغامز وتتضاحك ضحكات كـــتومة، لكن فتى صاح: انظروا ان لديه غلفة... هذا بعده ما مطهر. فشهقت الاصوات وانقطعت الضحكات.

انـــزلت قوجانس بصعوبة، واخذته بسير شبه هروله. قبل مغيب الـــشمس اتانـــا رجل كبير هو ذاته من قمت بتغسيل اخاه الميت تلك اللـــيلة، وقـــال لنا بانه يجب ان نختن قوجانس. فسكت ثم قلت له انه رجل مريض ويعاني من آلام كثيرة فلماذا نـــزيد من اوجاعه؟!

لم يقتنع واصر على اداء الشريعة. عجيب هذا الرجل يؤكد على زوجته ان تطبخ لنا صحناً فاخرا من الطعام كل ليلة جمعة للرجل المبارك قوجانس، بينما هو الان يعتقد ان الطهارة قطعة من جلد الجهاز التناسلي!

قال لي حميد ان عير قوجانس ورطة حقيقية، من جانب يستدعي فضول النساء العقيمات ومن جانب يستفز الرجال الملتحين، نحن في ورطتين وقوجانس سيكون في النهاية مطلوب الرأسين رأسه الاعلى ورأسه الاسفل.

في الصباح اول شيء تحدثنا به مع رضا حاج هو عيرقوجانس وجهازه التناسلي، امسك رضا حاج بسمكه من ذيلها واخذ يحركها بطريقة بذيئة:

- يقولون احلى شيء في السمكة رأسها.. مو هيج قوجانس؟!

حك قوجانس خصيتيه بطريقة عنيفة كعادته وقال وهو يحمل السمك ويصبه على المصطبة:

- تمام عمي... بس آني ما اشتهي رأس السمك

- طبعاً اعيوني.. اتحب تبطحها بطح.. عفارم عليك.. مو هلشكل يقولون اهل العراق؟!

في ساعة الاستراحة، حدثنا رضا حاج بجدية اكبر:

- الجماعة تراهم ما راح يعوفون خصوة قوجانس ايتروها يعني ايتروها. والا سيقولون انكم يهود متخفون ومارح تخلصون.

قالها وهي يمثل كفه كسكين يمررها على كف يده الاخرى. فرتعش قوجانس واخذ يصرخ ثم هرول من دون ان يبالي بصياحنا. في الليل وجدته يتقلب على جمر وجبهته تتعرق فتذكرت القطعة الملفوفة التي اعطانياها الشيخ صالح في همت، تلك التعويذة التي هي الشيء

الوحيد المتبقي من اهل قوجانس وهويته. برفق ربطت التعويذة بكتف قـوجانس، حـيث انه ينام عاري الجزء الاعلى. تعجبت فعلا انه هدء وغط بنوم عميق كأن حملا أنـزل عن كاهله!!

تطلعـت بقوجانس وتذكرت اهتمام وردة به. اين هي الان، هل رحلوا عن همت الى محافظة آراك الايرانية ام ذهبوا الى مدينة قم، ام انهم عادوا الى العراق؟!

كيف هي الان، هل اصبحت اكبر واحلى؟!

آه اشـعر بعالم قديم يعيش داخلي، هناك انبنت مدينة في احشائي وداخـل اروديتي وخلايـاي، مدينة تكون طابوقها من الحب والعزلة وانعدام الذاكرة واللغة وذهول الاكتشاف. اردد اسمها بصوت داخلي حـيث تهمس روحي لروحي: وردة.. وردة.. اكرر الاسم حتى ادوخ واسقط من شدة الاعياء.

اليوم التالي لم يكن عاديا، فلم يدهمنا الموتى هذه المرة وانما رجال الـشرطة الذين سئلوا عن قوجانس فما ان رفع رأسه حين سمع صوته حتى انقضت عليه الايدي تصارخنا انا وحميد فأخذ كل منا حصته من الـركلات والعـصي وكعـاب البنادق، تكومنا على اوجاعنا حاولنا الـنهوض لكـن صـوت السيارات تعالى بان الجنود اخذوا قوجانس وذهبوا... الى اين وماذا فعل المسكين؟!

جرجـرنا ارجلـنا بصعوبة بعد ان مسحنا الدم عن الفم والعين، تشبثنا برضا حاج:

- اخذت الشرطة قوجانس ولا نعرف لماذا؟!

اسود وجهه وتصلبت نظراته، قال بصوت واضح:

- اهربوا الان؟!

- وقوجانس كيف نتركه؟!

لم يجبنا رضا حاج فقد ترك السمك حيث اوصى بائع البقالية فلاح نجاتي. كان يبتعد وهو يشير بيديه: اهربوا

تسمرنا مدهوشين، ثم سئلنا بائع البقالية فلاح نجاتي عن اقرب مركز شرطة فدلنا عليه، لكن ما ان انتهى من وصف العنوان حتى وجدنا انفسنا انه قد تم تطويقنا بسيارات الشرطة.. تبلكنا حاولنا الركض لكن كيف والارجل قد رُضّت؟! يبدو ان القوم لم يقوموا بمهمتهم بشكل كامل حينما اخذوا قوجانس فقط فعادوا يكملون لعبة القوة.

- بدر سختا.. بيا انجا.. بيا

ها قد بدأت الحفلة اهم ينادوننا باولاد الكلب هيا تعالوا.

اصعدونا الى السيارة فتناهبتنا الاعين التي تكاثرت علينا في السوق، ثم تعالت الهتافات:

مركب بركب منافق... الموت الموت للمنافقين

مركب بركب زد ولايت فقيه.. الموت الموت للذين يعادون نظرية ولاية الفقيه.

تعجبنا أوليس هولاء الذين بالامس يتبركون بثياب قوجانس المتنه؟!!

كانت الاسئلة تتسارع في الرأس بسرعة الاوجاع في الرأس والفم والقدمين، التعجب يكبر بحجم المسافة التي تلتهمها عجلات هذه السيارة اللعينة... الى اين وما هي التهمة وهل سوف نرى قوجانس مرة اخرى؟!.. لقد تركنا همت فهل رحلنا عن الحب الى ارض الجريمة؟!

* * *

هـــا هي عشرة ايام تمضي في سجن بندر امام ولا نعرف تماماً ما يدور حولنا. جنون قوجانس بات نظرية حزبية، الحكومة تكره الرجال الذين تكبر شعبيتهم حتى لو كان عبيطاً او صغيراً او مغفلا.

المبروك من تباركه الحكومة والملعون من تلعنه الحكومة.

ماذا يعني قوجانس؟!

الى اي دين ينتمي؟!

لماذا هو غير مختون؟!

لماذا لم تبقوا في همت كي يتم ترحيلكم الى معسكر آراك؟!

كيف تتجرأون على العمل فتقللون الفرص على الشباب الايراني الصاعد الطموح؟!

عـــشرات الاســـئلة تتوالى ولكل سؤال طريقة معينة في التعذيب والـــتلذذ الوحـــشي. وازدادت المصيبة حينما تم احضار تلك الملابس العسكرية التي اخذها قوجانس من مبنى الاذاعة العربية. فنحن الان اما جواسيس او قتلة.

قلت لحميد: ها قد سقطنا في الحفرة من جديد وبدل فليح واحد اصبحنا امام دولة كاملة.

كانـــت رؤوس النخيل تتقافز من النافذة الصغيرة في مخرة السيارة العـــسكرية، تتـــراقص بنا المسافة اذ ليس جميع شوارع الاهواز مبلطة بالاســـفلت رغم ان الاهواز تفيض غنى وثراءا في النفط والمياه والثروة الزراعية والحيوانية كالبصرة العراقية لذا فهي تساويها اهمالا وفقرا!

نبح علينا الجنود ونبتت عيونهم في احشائنا قبل ركلاتهم، كانت بوابة المكان متواضعة لم نرى سوى باحة حقيرة قبل ان ندخل الى غرفة لم نصلها الا بعد نـــزلنا الى العالم الاسفل، عشرات من درجات سلم مـــضاء بطريقة نخيلة. نحن الان في منطقة اسمها ((بندر امام)) ونحن في

سـجنه الفخـم هذا، اهلا وسهلا بكِ ايتها الاجساد في حفلة تجريب جديـدة، حفلة اكتشاف طاقة الظلم في الوصول الى قناعة اخرى اكثر برهاناً من التحديف النظري في منابر المساجد وصفوف المدارس. هنيئا لـك ايها البدن قدرة تحدي الحمير في تلقي الصبر، هل قال داروين اننا نـنحدر مـن القرد مستحيل والا لما كنا نحن والحمير اخوة في الصبر والعناد.

تركونا يوم كامل من دون ان يقدم لنا احد طعام او يقدم شخص معـنا على كلام. كانت غرفة صغيرة شبه مظلمة ورطبة وفيها مجرى صـغير، مجـرد حفرة اخدودية في الارض فيها بقايا غائط وينبعث من روائـح بـول وعفونة قاتلة. كنت افكر هل السجن الذي تحدث عنه عـباس في همّت يشبه هذا السجن؟! وهل يقوم السجناء هنا بتخطيط موضـع سـائلهم الابـيض حينما تعتريهم الجنابة، ام ان هذه السجن اسلامي لذا فهم يدعون السجناء يغتسلون؟!... في الخيمة الزرقاء كانوا يقولـون ان الشيطان ضرورة مثل ضرورة وجود المرحاض في البيت، فهل السجن ضرورة لبناء دولة فنحن نفاية المجتمع؟!.. على اي اساس تـتحدد هـذه الضرورة، ولماذا فئة معينة هي التي تحدد الضرورة وفئة علـيها ان تنـصاع للحكـم بكونها هي المرحاض والنفاية والسجن والشيطان؟!.. لعن الله الساعة التي ولدتني فيها امي.. هل كنت مختاراً ان ادخل للحياة كي يجب علي اطاعة كل هذه الامور المعقدة والغريبة. لقـد فجعـتُ اكثر بفقداننا المراحيض الطبيعية وعدنا نتبرز في اخاديد محفورة، او في علب من الصفيح في غاية النتانة.

اعتذر مني حميد وقال انه السبب في مأساتي:

– انـا السبب في هذه الورطة لو لم تقف معي ضد السيد ياسين لكنت الان في همّت بقرب حبيبتك وردة.

تنفست بصعوبة وانا اسمع اسم وردة:

– لا تـــدع الذنب يحاصرك، لو لم اخرج من همّت لقتلني افليح، خصوصا واني قد نفذ صبري لمعرفة مصير أبي رسول.

عدل حميد من جلسته:

– تقصد ابا رسول ذلك الشاب الذي يعمل مع مقاتلي المعارضة؟!

– نعم هو

تبدل صوت حميد:

– وما علاقة افليح بهذا الرجل؟!

– لا اعـــرف لكني في احدى الليال سمعت افليح يحادث عساف ويقول كلاما غريبا عن قوجانس وانه سوف يتم ارسال عاهرة بغية الى همت تتجسس على الناس.

لطم حميد جبهته: طرااا ب

– ماهذا الكلام.. اجاي تحجي.. ولك شنو.. انت متأكد؟!

– مـــتأكد وبعد مجيء ام وداد وبناتها شاهدت ابا رسول يدخل الخيمة وبعد رحيله الاخير لمقاتلة حكومة العفالقة مع جنود المعارضة لم يأتي و لم اسمع عنه خبر.

تحسر حميد:

– هذولة العفالقة ما راح يتركونه حتى لو وصلنا لآخر الدنيا بيننا وبينهم ثأر ازلي.

تحـــسر حميد وسرح، اسند ظهره للحائط العفن وتجمد ظهره في نقطة غير مرأيه. تطلعتُ فيه قائلا:

– تعـــرف حميد، اتمنى لو يصل العلم يوما الى اختراع يخلصنا من الذاكرة، فالذاكرة هي المحنة... كنت مرتاح حينما كنتُ فاقد الذاكرة في همت، الان اشعر ان الدنيا اضيق من قفص.

– ومـــن قال ان الذكرى هي تفكير في امر مضى، قضبان الامس الخالـــدة، الذاكرة هي ما يأتي، حتى الغد هو تتميم لمعتقل تم خلقه قبل الانسان ففي البدء كان المعتقل.

ولما وجدني صامتاً، عاد الى الكلام:

– ارجـــوك لاتسلط غضبك على الرب وتنسى الانسان، صدقني لابد ان تذهب للحوزة وتدرس الدين كي تفهم بان الله سبحانه رحيم وحكيم لكن المشكلة هي في الانسان.

هـــا قد عدنا الى هذا الجدل الذي يبرر افعال الالهة ويدعي فهم دواخل الانسان وعالم نفسه المظلم.

علـــى ايـــة حال لم افهم معنى الكلام جيداً. ساد صمت شاحب فجاء صوت حميد مثل شخص يحدف في نمر في ليل دامس:

– هـــذه ليست المرة الاولى التي اشعر فيها باني مرفوض واستسلم لسهم الاذلال بلا ذنب. فقد كان لي اخ اسمه ظافر تبنته خالتي العقيمة الـــساكنة في العاصمة فدللته وحرصت على تعليمه وقد كان شعلة من الذكاء ورهافة المشاعر فتخرج سنة 1988 من كلية الاداب قسم اللغة العربية في بغداد وكان الاول على القسم. وكان ابـــي يعتقد ان اخي محظـــوظ بسكنه عند خالتي الثرية وانه تخرج في ذات السنة التي تخرج فـــيها قصي صدام حسين من كلية القانون جامعة بغداد، وطبعا كان قصي الاول على جميع الطلبة والتلاميذ، فتم اصدار قانون خاص تلكم الـــسنة بـــان جميع الاوائل معفيين من الخدمة العسكرية ما عدا الايام الخمس والاربعين يوماً التشريفية التدريبية. لكن القرار كان حبرا على ورق فلـــم يطبق الا على قصي ابن صدام لا غير. كنا مثل توأمين فكنا عبـــئا على ابـــي الفقير لم يكن ابـــي راضيا عن هذا الحل بان يكون احـــدانا في العاصمة في الثراء والثاني يعاني الفقر خصوصا وان الحرب

تـــركته معاقاً بقدم واحدة ويستلم راتبه ثم يوزعه على المحتاجين لكونه يعـــتقد بانـــه مال حرام ثم يذهب لصناعة النعل الجلدية التي يجلبها من الشطرة والزبير يكملها ثم يعيدها لاصحاب الدكاكين مقابل اجر زهيد علـــى كل زوجين من النعل. كلما اتى ظافر لزيارتنا احضر معه عددا اظافـــيا مـــن القمصان والبناطيل كي يتظاهر بنسيانها فيتركها لي كي لايجرح ابـــي ولا يحرجني فكانت امي تقوم بقصها وتصغيرها لي. لقد قلـــتُ لك بان ظافر كان شعلة مشاعر واحاسيس وكان يعشق كتاب خـــزانة الادب ولا يفارقـــه ابـــدا. كان على اخي ظافر الذهاب الى العـــسكرية فالعام الجديد للدراسات العليا سوف يبدء في العام الجديد والحكومة لن تضيع الفرصة بالاستفادة من رجل صالح للموت.

امـــي باتـــت ترى ظافر يلبس البياض يداعب فتيات شقر وبيض وبيده الشموع ويقول لاتنسي اماه ان تعطي هذا الكتاب، كتاب خزانة الادب لحميد.. لاتنسي، يبتسم ظافر وتفز امي من النوم مفزوعة تلبس عباءتـــها وتقرر الذهاب الى بغداد، تصل في ذلك الجو الجحيمي، شهر تموز، شهر الكوارث العراقية وشهر تخصيب الارض والعذاب، تصل الى اختـــها تسئلها عن ظافر فتقول لها بانه سوف يصل في نهاية الشهر في اجازته الشهرية فهو قد تم تعيينه في الفاو حيث الجنوب وحيث المجهول ولوعة السؤال. وتكتم خالتي زهراء عن امي انها رأت ذات المنام وذات الحلـــم. تعـــود امي وفي المدرسة ينقبض صدري واشعر بعطش يكاد يقـــتلني، اشـــرب الماء، اعبه عبا لكن بدون جدوى. عشرة ايام افز في منتـــصف اللـــيل حيث اسمع صوت اخي ظافر بقرب وجهي، شعرت باصـــابعه تمـــسح شعر رأسي، الغريب ان كتاب خزانة الادب الذي لايفارق ظافر وجدته متروكاً في خزانة كتبـــي المدرسية وهو الكتاب الذي لايفارق ظافر ابداً.

لقد انقضى الشهر الاول والثاني وظافر لم يعود اضطر ابـــي رغم اعاقته الذهاب الى وحدة ظافر العسكرية في مدينة الفاو وهناك استغرب بان ظافر لم يذهب للجيش سوى اسبوع واحد ثم اختفى فعنف الظابط ابـــي وهدده بان لايخدع الحكومة ويجب عليه ان يقنع ابنه بالعودة الى الجيش. لقد كان في الشهر الثالث الجواب فقد حظر مدير امن المحافظة الى منـــزلنا وطلب من ابـــي ((ان يأخذ الكلب قبل ان يتعفن)) لقد تم اعـــدام ظافـــر حيث تم اكتشاف تورطه بالانظمام الى حزب الدعوة. زحف ابـــي زحفاً في المصاب وامي اصابها الخرس وانا احتظنت كتاب خـــزانة الادب وعوضت السطور دمعاً ودم. منع رجالات البعث اقامة مجلس فاتحة وعزاء وكأن ظافر في قائد في الاربعين من العمر رغم انه ما زال مـــراهق. بـــصعوبة حمل الاقرباء الجنازة وفروا بها الى النجف ثم اســـرعوا الى اعمالهم خوف ان تصيبهم تهمة، حتى دفن الميت جريمة في قاموس العفالقة!

لا انـــسى ابـــــي كيف تلقى الخبر فقد لامست قدماه الارض وهـــوى على عتبة المنـــزل وناحت امي فوقه واصبحا مثل تلة كسنام جمـــل ربى لحمه بالاوجاع في رحلة هي دولة للخراب. ساعتئذ شعرت بـــاني وحـــيد وانـــه قد نبتت لي حواس خاصة بت فيها داخل العالم وخارجـــه في لحظـــة فوق الوصف. لم ابكي رغم صغري و لم اركض صوب ابـــي وامي رغم تلعلقي الكبير بظافر كأني اردت عزاءا خاصة لي أوديه مرة واحدة وليس على حصص ومراحل وهكذا دخلت عزلة طـــويلة بلا طعام ولا كلام فقط اقرأ خزانة الادب واضع صورة ظافر امامـــي واتـــرك لنهري العيون ان يفيظ ذكريات وصور. لم يحمني من الجنود سوى كتاب خزانة الادب الذي قامت امي بجلب بقية الاجزاء من بيت خالتي، خالتي التي سوف تذوب تماماً بعد رحيل ظافر المفجع

والسريع. كنتُ اقرأ بدون ان افهم اي شيء من ذلك الكتاب الصعب القـــديم، لكـــن انفاس ظافر بكل سطر كانت تسقي روحي ان تذوى وتموت. هكذا عدت الى الارتباط بالمدرسة ولما كبرت عرفت ان ابـــي كان ينظر يوم الثأر ويحمل بدل عجاز التوكأ بندقية في انتفاضة شعبان عـــام 1991 ولقـــد صـــحت خالتي من توهانها ولم ترضَ الا ان تشارك كالرجال ولم تسترح الا برصاصة بصدرها ورأسها ولم تبكي امي لاجلها وانما كانت تتعارك معنا بان تمضي خلفها كي تؤنسها هي وظافر في القبر لكـــن ابـــي ذكرها بـــي واني سوف اكون يتيم. كل هذه الاحداث ابقت في ذهني حزب الدعوة وحركة المعارضة فنسقت وراء الكلمات والجـــرح ولم اع المعنى الا هنا.. نعم هنا لكن يجب ان لا نيأس فنحن نحمل قضية كبيرة هي تحرير العراق من هذا الاستعمار الداخلي.

شـــيء مـــن الاربالك ساورني، لماذا نحمل انفسنا كل هذه الامور الثقـــيلة.. ما حاجتنا الى صنع كل هذه الحواجز ونضع اروحنا خيول ســـباق لايعنيـــنا ونوهم عقولنا باننا اصحاب قضية، لماذا ندوخ بصنع الكلمات الكبيرة؟!

الم نتعلم في الخيمة الزرقاء ان جد النبـــي ترك الدفاع عن الكعبة وطالـــب بخـــرافه ونعجاتـــه وقـــال ان للبيت رب يحميه.. لقد كان عـــبدالمطلب يـــريد من الاله ان يثبت وجوده بشكل عملي.. بشيء ملموس، اما التنظير والبحث عن التأويلات والادعية والابتهالات فهي تجعـــل الـــرب يلـــوذ بسكينته العلية فأي حاجة للتدخل ما دام هولاء يحشون المشاكل بالكلمات؟!!

آه للبيت رب يحميه وانت من لك في هذه الغربة وهذا المعتقل؟!

كـــل خلايـــاي تصيح وردة.. وردة.. ما اتعس الانسان بدون حبيب. الحبيب هو انت مفصول عنك لذا كان الموت أليم.

بصعوبة استطعت اخفاء ملعقة الطعام حولتها الى قلم واخذت اكتب على الحائط الذي شعرت به يأن معي.. من قال ان الاحجار لاتسمع؟!:

احـــتاجج تعـــالي وكحلـــي العـــين

آااه تعـــــبني الهجـــــر كـــــافي

شـــته فـــراكج كـــضيته بـــدرب بردان

ودرب صـــيفج صـــفنات ووجـــه فاهي

اسمـــج يتـــردد بوســـط قلـــب ولهـــان

مـــثل حـــضن الامـــومة شـــكثر دافي

شعرج حبر والوان وشفتج بلسم للجروح

آااه اشـــكد احـــبج يـــالبن صـــافي

انـــا يالحبيـــبه بـــدونج كلـــي اهمـــوم

لـــو يـــصير الـــدرب جمـــر ونـــار

امـــشيلج علـــى الـــدرب حـــافي

احـــتاجج تعـــالي وكحلـــي العـــين

آااه تعـــــبني الهجـــــر كـــــافي

اصر الجنود على ان نتردي ملابس السجن الرسمية والتي هي عبارة عـــن قميص فضفاض وسروال كلاهما شبه ازرق مخطط بخيوط رفيعة مـــتقاطعة مع مايشبه الازهار موزعة على كل القماش مع جيب واسع علـــى الجهة اليسرى من الصدر. رفضنا فضربونا. توحدنا بفكرة انا ان ارتدينا هذه الملابس فانا سنقيم في هذا السجن الى الابد. بعد الاصرار وعقوبات شتى تركونا بملابسنا الاولى.

كانـــت اشـــد العقـــوبات هي ربطنا بساحة السجن وسكب علينا القاذورات كي تأتي علينا شتى الحشرات خصوصاً وانهم ربطونا الى عمود علق في اعلاه مصباح قريب من رؤسنا لغرض اتمام خدمتين جليلتين: كي لاننام وكي تهتدي الينا الحشرات ويدوم احتفالها الليلي المبارك!

حاولـــت مراراً ان اتكلم مع حميد المربوط معي حيث ظهره على ظهري لايفصلنا سوى العمود، كنت بحاجة ان اتكلم فقد اكتشفت ان الكـــلام نـــوع من المقاومة بل لا مقاومة بدون كلام. لكن من شدة الاعـــياء كـــنت كلما حاولت الحديث اجد نفسي في صحراء التعب، تضيع من الكلمات والافكار. وجدت المسافة بين عقلي ولساني بعيدة جـــداً. مهما ركزت نظري لا ارى سوى ملامح لاصفات لها، سوى ضـــجيج غائم لاحاديث الحراس والسجناء. كانت الشمس قد غيرت وجوهنا تشققت الشفاه واخذ لحم الوجه يتساقط... كان منظرنا بائسا وبشعاً بالتأكيد فآخر مرة كنت اعي فيها وجوه الحراس العابرين كانت عيونهم تتقافز عنا بتقزز واضح.

لاصلة لنا مع لاشياء سوى الزمن، الزمن هو الحياد والمساحة هي العـــدو. كـــان العمود مركز ثقل الاعياء والوعي فقد تخدرت الايدي والاكتاف والظهور، كم يحمل الرأس من طاقة تحمل كي تبقى المشاعر نابـــضة. رغـــم العـــذاب بقي العمود هو المركز والايام تدور حوله كككـــواكب نارية من الاحتمالات والتأملات والهذيانات والصراخات، اي احمق ذاك الذي قال ان الايام هي الايام وتلك هي القاعدة؟!

وحدها وردة كانت تأتيني وتلفني بحدائلها، تمسح عني الدم وتفرك الدمل والجروح وتنش عني الحشرات. بعض الاحيان كانت ترقص كي يتحـــرك الهواء ويتجدد. كانت وردة تحمل عيون الفاختة، تبتسم رغم جرح الفراق.

تلك الليال حربطت علينا الحساب فلم نعد نعرف كم يوم مضى علينا في هذه المكان. لكن بعد سبعة عشر يوما من انتهاء عقوبة ربطنا في ســاحة السجن(حسبما سوف نعرف من احد الحراس) اعادونا الى ذات الــزنانة لكنا وجدنا فيها قوجانس، كان بحالة صعبة جدا اخبرنا وهــو يبكــي انهم وضعوا بيضاً مسلوقاً بفتحة الشرج حيث تم ربطه بكرسي مفتوح القاعدة واتوا بجهاز صغير فيه بيضة محماة صلبة وتم دفع البيضة بلحم الشرج الرقيق. كنت انا وحميد نغفو كأننا نموت ثم نصحو على هلوسات قوجانس وحديثه العجائبــي عن المنقذ. يااه فات زمن طــويل لم احلم بذلك الحلم الغريب!... كانت صورة وردة لاتفارق مخــيلتي وقوجانس يتقلب ويهذي كأن وسادته الحصى وفراشه الجمر.. كــان يثرثر ثم يغط بشخير عال، ثم يعاود ثرثته المطلسمة مرة اخرى، كأنما الكلام يناكد الليل او الليل يناكد الاسرار:

الــشوق قــصبة مملكةالحيين، فيها عرش عذاب الفراق منصوب، وسيف هول الهجران مسلول، وغصن نرجس الوحدة على كف الامل موضــوع، في كل آن يطيح السيف بألف من الرقاب. قالوا: إن سبعة آلاف من السنين قد مضت، ولكن النرجس لا يزال غضاً طرياً لم يصل اليه كف أي أمل بعد.

زارنــا الطبــيب في المساء وقرر انه يجب ان نمشي والا فسوف يصيبنا عوق دائمي. هكذا اخذنا نتمتع ببعض الحرية وامكانية المشي في اوقات محددة لكن بشرط ان لايتكلم معنا احد ولو بالقاء التحية. لكن الغــريب ان شــعر عانيتي كان ينمو بصورة متسارعة عجيبة، كما ان الــشهوة كانت تخرج من مكامن الجروح فتعلمت الاستمناء. حاولتُ مــراراً ان استمني وانا اتذكر وردة لكن لا فائدة دائماً شهوتي كانت تستفيض عند إحضار صورة صدر وداد او مؤخرة عزوزة.

بعـــد ان تحسنت صحتنا كثيرا انتبه حميد الى أني اصغر المسجونين ســـناً، واســـتغرب كيف لايوجد سجن للاحداث يتم عزلي فيه. اخذ يحذرني اكثر من مرة ان انتبه كي لايغتصبني احد:

– لؤي دير بالك وانتبه زين.. لافرق بين شخص يصلي وشخص سكير، اللواط موجود بعقل جميع الرجال مثل غول مربوط في سرداب ســـري، وهـــنا نحن بعيدين عن الله وقريبين من حثالة المجتمع... دير بالك.. أفتهمت؟!!

لكـــن شدة تحذيراته اصابتني بخوف كبير، وجعلتني أوي الى الصلاة وبعـــض الادعية. كما بات نومي خفيفاً وذهابـــي الى المراحيض سريعاً. هكـــذا صرت افز لدبيب نملة، واتهيء احلاماً وكوابيس تصور ان الارض تغط بدماء شرجي وان لامكان لي بين الرجال بعد الان... في بعض الليال بكيت بصمت وفكرت ان انتحر.. لكني كنتُ جباناً او ان الانتحار فكرة ضـــخمة لكوني كنت اخشى ان يكون الله موجوداً فعلا، هكذا صارت اليقظة والنوم كلاهما نوع من الكابوس المستمر حيث مشاهد الجحيم التي لاتكـــف عـــن التكرار.. توقف الزمن لدي لمدة اكثر من شهرين، حتى اصابني هزال كاد أن يودي بـــي. ولولا رعاية قوجانس لي لوذكرى وردة كنتُ من الموتى الهالكين او من المجانين كلياً.

حمـــيد كـــذلك نشط نفسه واخذ يدرسني بما يحفظه من كتاب خزانة الادب محاولا تبسيط المطالب جهد الامكان، ويعضده قوجانس بـــبعض الحكايات التي سمعها من الزايرة ناظمية. قوجانس في ساعات الـــصفاء يتحول شخص مختلف يشبه نسيم الصباح حتى لاتكاد تصدق انـــه ذات صديقنا ذاك. لم يعلم كلاهما بسبب ضعفي، ظن كلاهما ان الـــسبب هـــو فقـــط اشتياقي لوردة وحنيني اليها. او تذكري لأهلي فحضور الذاكرة هو احضار لنار الله الموقدة التي تطّلع على الافئدة.

تطلع فيّ قوجانس بحنان وقال لي:

- والله العظيم لؤي كلنا انحب وردة مو بس أنت...

- تأثرتُ كثيرا واقتربت من قوجانس ومسحت على شعره:

- سوف نلتقي بوردة والزايرة ناظمية والشيخ صالح من جديد.. أطمـــأن قوجانس.. كل ما في الامر ان الطعام الذي نتناوله في السجن قليل لايكفني.

هنا صرخ قوجانس:

- يحرم عليّ الاكل بعد اليوم.. حصتي إلك.

وبـــصعوبة وبكـــثيرمن التوسل جعلنا قوجانس يتراجع عن هذا القرار. فلو منحني ولو أقل قليل من حصته سوف يقضى عليه فهو ايضاً موجوع ويحاجة الى تغذية.

في الـــسجن كانت هنالك دروس مفتوحة لتعلم الفقه والاخلاق، بـــشرط ان لاتـــزيد على خمسة انفار. حيث يسمح بانتقال هولاء في زنـــزانة واحدة يوم واحد لمدة ساعة كل اربعة ايام. بيد ان الامر تحول الى حفلة تعذيب وحبس عدة انفار في زنانات النفرادية والبعض قيدوه في عمـــود وســـط الساحة. وذلك بسبب اكتشاف ان تلك الحلقات كانـــت وســـيلة جيدة لتحفيظ قصيدة الشاعر المعروف مظفر النواب وتـــريات ليليلة، التي هي قصيدة جد طويلة معروفة بشجاعتها النادرة حـــيث شتم مظفر النواب جميع السرطين العرب واسقط كافة الاقنعة الـــسياسية والطائفـــية، وكان الاهوازيون يعشقون ذلك المقطع الذي يقول:

{يا أبواب بساتين الاهواز

اموت حنينا

يا أبواب الاهواز.. أموت حنينا

غادرت الفردوس المحتل
كنهر يهرب من وسخ البالوعات حزينا
احمل من وسخ الدنيا
ان النهر يظل لمجراه امينا
ان النهر يظل.. يظل.. يظل امينا
ان النهر يظل
فأين امرأة توقد كل قناديلي؟؟
فالليلة تغتصب الروح حزينا
هذا طينك يا الله يموت بـــي العمر
ويشتعل الكبريت
جنونا
هذا طينك قد كثرت فيه البصمات
وافسق فيه الوعي سنينا
هذا طينك. طينك.. طينك.. تتقاذفه الطرقات
بليل المنفى والامطار
دلتني الاشعار عليك
فكيف ادل عليك بجمرة اشعاري
جعلتني الدمعات كمنديل العرس طريا
لا اجرح حدا
خذني وامسح فانوسك في الليل
نشع بكل الاسرار
لا تلم الكافر في هذا الزمن الكافر
فالجوع ابو الكفار
مولاي!!

انا في صف الجوع الكافر
ما دام الصف الاخر يسحد من ثقل الاوزار
واعيذك ان تغضب مني
انت المطوي عليك جناحي في الاسحار
اله نجوم البحر
لقد ابحرت اليك
كاخر طير في البر
وكادوا يقتنصوني
اله البحر! سيكتشفوني
اله البحر! الست تشم مساحات سكاكين الدم،
سيكتشفوني}

وكان من بين اكثر المتظررين حميد، باعتباره مولع بالشعر وباللغة العربية. حينما أعادوا حميد الى الزنـــزانة التي ننام فيها سوية، لم اعرفه فأنفـــه تحطـــم وشـــفته كانت مشرومة، وكافة جسده مخطط. بكى قـــوجانس كـــثيراً وخـــرج عن طوره مرات عديدة وبت بين معذب ومصروع، شعرت بالحواء وبعفونة كل شيء. ثلاث اسابيع كان عليّ ان اعـــين حميد على قضاء حاجته في التبرز، بأن نجعل ثقل جسده يتكأ علـــى قوجانس، وانا امسكه من الامام وحينما ينتهي يضمه قوجانس كـــاملا وأحـــاول تنظـــيفه. كانت دموع حميد تنـــزل مدراراً كأنه ينـــــزف مـــاءاً. لكن حميد تحسن اسرع مما ظننت، وظهرت فيه قوة الـــتحمل وطاقة العودة الى سجيته الاولى كأن شيئاً لم يكن. فالتذكر حكمـــة والقدرة على النسيان جزء من صنع الحياة. وأول الاشياء التي عـــاد إليها بحماس هو ان يتمشى ويستذكر جميع ما يحفظه من الشعر، حتى ظننته انه قد جُنّ بشكل كامل. لكنه بالتدريج اخذت تخفت حمى

هـــذا الاســـتذكار وعاد اليه برد العقل وشخصيته الاولى. لكني كنتُ ارمـــق دمعـــة متجمدة في مآقيه بين الحين والاخر حينما يتلمس جرح شـــفته الذي شوه منظره. بدا لي في تلك اللحظة ان الوجه هو كرامة الانسان ذاتها لذا نحن نتحمل مئات السياط لكن نستفز منصفعة خفيفة.

في احـــد الايام اتى نفس الطبيب والذي كان فارع الطول صغير العيون بشكل غريب، فاخذ يتحدث معنا بشكل عفوي. قال انه يحب العـــراق فهو بلد الاطباء الحقيقيين. ثم سئلنا كيف دخلنا الى ايران فقلنا لـــه انا كنا في همّت. توقف ثم قال هناك شخص سبق ان عالجه يدعى راجي. قفزت انا وقوجانس وسئلناه بلهفة اين هو.. اين هو؟!

– بخـــير، تقريباً قد شفي الان وهو يسكن في احد البيوت التابعة لمسؤلي السجن القريبة منا ومحتمل انه سوف يعود لهمت هذا الاسبوع.

– هل تستطيع ان توصل له رسالة؟!، سئلتُ الطبيب بتوسل.

قال الطبيب الذي لم يقبل ان يخبرنا باسمه:

– نعم بشرط ان تكون عادية

– فقط تخبره بانا هنا.

اغلـــق الطبيب حقيبته وقال انه سوف يأتي بعد ثمانية ايام ويخبرنا عن تطور الامور.

كـــان اطـــول اسبوع في حياتنا، فاحتلت رؤسنا احلام اليقظة. بقي حمـــيد يتسائل عن علاقة راجي ومكانته بان يحظى بهذه المعاملة الخاصة من قـــبل الايـــرانيين. لم اشـــئ ان اخـــبره بان افليح ابو راجي يعمل لصالح المخابرات الايرانية والعراقية. بعد اسبوع اطل الطبيب الزرافة بوجه عابس:

– راجي عاد بدون ان استطع ان اراه، اعذروني.

ضرب حميد جبهته وبدل ان يهدأنا كعادته ويشد عزمنا كان هو المنهار الاول هذه المرة. بعد ان استراح حميد قال للطبيب:

– لدي رجاء اخير

– ماهو؟!، قال الطبيب

– ضمن اشيائي التي اخذوها الجنود كتاب لي هو كتاب في الادب العربي احتاج ان اتسلى بقراءته كي لا اهار... دخيلك يمعود.. امروتك.

مسح الطبيب بلسانه الوردي شفتيه:

– عجيب ان تسئل عن هذا بعد كل الذي حصل لك مع ذلك سوف احاول.

بعد ان قرر الطبيب انا قد تعافينا، خصوصاً حميد، اتى الحراس في الليل واخذونا في عتمة الليل الى مزارع تابعة للسجن كانت مزارع جزر وباذنجان. بما ان الباذنجان لايتحمل حرارة الشمس لذا يتم جمعه في الليل. هكذا كان الباذنجان يمثل ازعاج ليلي اما الجزر وهو ما اخذنا نطلق على العمل به ارنب، فقد كان جحيما حقيقاً فالذي يعمل به يوم يمرض اسبوع حيث يتم انزاله في برك مائية عملاقة منذ الفجر وحتى ساعة قبل مغيب الشمس. فتتشرب البرودة بالعظام وتصعد الحُمّى في الليل ثم الهذيان حيث الزنزانة خالية من كل شيء.

في اسبوع اخروجنا نحن الثلاثة الى ان نعمل ارنب على خلاف المرات السابقة، حيث العادة ان يأخذوا واحد الى حوي الجزر واثنان الى الباذنجان، فتمرضنا سوية فتقرر اعفائنا لمدة ثلاثة ايام. في آخر يوم تقرر اعفاء الجميع من العمل لغرض لم نفهمه وبينما كنا نتمشى في ساحة السجن وندور حول ذلك العمود المقدس الذي ربطوني انا وحميد عليه، لاحظنا دخول شاحنة عسكرية مع سيارتين صغيرتين. تقافز الحراس ودوة الصفارة كي يصطف الجميع. اتى الجنود واحاطونا ببنادقهم من كل جانب. ثم اتى رجال برتب عسكرية مع مدنيين لم

يسبق ان شاهدناهم. لم اصدق عيني. قفز قلبـــي وصرخت على احد المسوؤلين الذين كانوا يتأملوننا بصرامة:

ابو كاظم.. ابو كاظم.

التفت السجناء والجنود وصرخ اصحاب الرتب.

ضحك ابو كاظم واقترب مني:

– شنو الي جابك اهنا... كبرت والله ما عرفتك

لم استطع امساك دموعي:

– تذكرني ابو كاظم.. بعدك تتذكرني يوم الذي تعرض فيه راجي لضربة خنـــزير.

– كيف لا اذكرك.. ان نسيتك فعيون وردة سوف تُذكّرني.

ثم تأملني ابو كاظم وعلامات المسكنة والتآزر تعلو قسمات وجه:

– هـــاي اشـــصاير بيك.. نصف وجهك تساقط جلده.. شنو القصة؟!

ابو كاظم يأتي الى السجون عساه يتعرف على بعض الوجوه التي تعمل كجواسيس او جنود يحاربون الاهوار ثم يتسللون لاجل الحصول على ملعومات حول تحركات الخلايا العسكرية للمعارضة.

سئلت ابو كاظم عن ابـــي رسول؟! فوجم ابو كاظم ثم تحسر:

– لقد تم اعتقاله في آخر عملية ذهب فيها الى داخل العراق، يقال انه الان في سجن الرضاونية الرهيب.

لم استطع الا ان اسرد عليه ما سمعته من حديث عساف مع افليح وحضور ماجده الحلوة وبناتها الى همت ثم اختفاء ابو رسول.

تبسم ابو كاظم وقال:

– معلـــومات جيدة لكن لانستطيع ان نتهم احد بدون دليل هذا حرام!

اصـــابني بعـــض الاحباط. فقد كنت اتصور ان لدي حل اللغز المقدس والدليل الاكيد.

اخذني ابو كاظم الى غرفة مدير السجن. وهناك قصيت عليه كل الحكايـــة. و لم يفت الامر بحضور مترجم ترجم جميع الكلمات للمدير. وهـــنا قـــال ابو كاظم بانه سوف يتم اخراجنا من السجن بعد ان يتم الـــتأكد من ان البدلة العسكرية مأخوذة من مبنى الاذاعة العربية. وان خروجنا لا بد ان يكون بطريقة تمثيلية عبارة عن هروب بواسطة شاحنة سحب المجاري.

لمـــا اســـتغربنا قـــال ابو كاظم هذه هي الطريقة الوحيدة كي تبقوا متهمين واحرار بنفس الوقت واي عمل تقومون به او تبديل مسؤول آخر في الـــسجن، يعيدكم الى زندان بندر عباس او اي سجن آخر. قال حميد واي فـــرق بـــين زندان وآزاد ايضاً. فاجاب المترجم: اذا كنت لاتحسن الفارســـية فـــلا تتكلم بها. ثم عليكم ان تحمدوا الجمهورية الاسلامية التي اوجدت لكم المخرج وجمعت لكم السجن والحرية معاً، زندان وآزاد.

بقيـــنا حائـــرين فقال لنا ابو كاظم بان الاهواز كبيرة تستطيعون العيش في اماكن اخرى. او تذهبون الى معسكرات الجوء في خوزستان او آراك او الى مديـــنة قم. دق قلبـــي وتسارعت ضرابته حينما ذكر آراك فقد تكون ورودة هناك.

المـــوعد هو ليلة الجمعة بينما يتم قراءة داعاء اسمه دعاء كميل بن زيـــاد بمكبرات الصوت ويتباكى الجنود باعتبارهم جنود في دولة دينية يطلـــبون الـــثواب، فان سيارة سحب المجاري ستقوم بنقلنا الى خارج الـــسجن. الامر الوحيد الذي تم اعانتنا فيه هو احضار اكياس بلاستك كـــي نكمـــم بها افواهنا كي لانختنق من رائحة البول والغائط. المسافة قليلة لكن من يستطيع تحمل رائحة كنوز المعدة الثمينة؟!

في هـــذه اللـــيلة الجنود القساة يطلبون الصعود بالثواب ونحن ننـــزل الى الخراء. كانت مفارقة حقاً ان يكون الطعام الذي ينـــزل ببطوننا كي نعيش ثم نتبرزه ننـــزل فيه الان كي نواصل هذه الحياة ذاتها!

قـــبل الموعد بما يساوي نصف ساعة اتى مدير السجن مع مترجمه وقال لنا بان قوجانس مستثنى وانه سوف يبقى. هاج غضبـــي وقلت ســـوف ابقى معه. ابتسم المدير احمد صغيري مثل خنـــزير. وقال بل سوف تذهب وانه لن يطول مكوث قوجانس.

– هو مريض.. صحت بقوة.

فاجابني المدير بصفعة طنت لها اذني.

وعدتُ قوجانس الذي لم اره عقالا مثل تلك اللحظة وقال لي بعـــيون دامعـــة: اذا رأيت الزايرة ناظمية والشيخ صالح فاشكرهم لي وســـلم لي كـــثيرا علـــى وردة. ثم ناولنا التعويضة الملفوفة على عضده.

احتظنـــته وبكـــيت.. بكيت بحرقة ومرارة وشعرت بضعف كبير.

تراكـــضت انا وحميد بسرعة بينما علت مكبرات الصوت بدعاء كميل وهو نص طويل يقال ان كميل بن زياد تعلمه من الخليفة الرابع علـــي بن ابـــي طالب وانه من مدخرات شخصية الخضر الاسطورية المذكورة في القرآن.

مشت بنا الشاحنة مسافة قليلا وقد تركنا الباب المدور الواقع في اعلى الشاحنة مفتوحاً، ثم توقفت ونـــزلنا حيث كان ابو كاظم بانـــتظارنا بـــسيارة حمل من نوع تيوتا صغيرة. اسرع بنا الى مبنى الاذاعة العربية ذاته. فوجدنا ذات الاشخاص لم يتغيروا. حزنوا كثيرا

لقـــوجانس. كـــان من الواضح اننا افراد غير مرغوب بنا فقد بتنا اصحاب مشاكل. بقينا يومين ثم اخذنا ابو كاظم الى منطقة تدعى كـــوت عبدالله تابعة لقضاء يدعى شادغان وهو تزوير لاسم المنطقة الاصـــلي الذي هو الفلاحية، كجزء من عملية القضاء على التاريخ العربـــــي في الاهواز حيث يمثل هذا المكان عاصمة الاقليم في عهد امراء بني كعب.

عـــرض علينـــا ابو كاظم العمل مع فيلق بدر فرفضنا او منظمة العمل فرفضنا. انا قلت له باني اود ان اعمل مع الخلايا المتواجدة داخل الاهـــواز التي تعمل لحراسة الماء من مشروع التجفيف وتدمير الاهوار الـــذي تعمل عليه حكومة العفالقة منذ ثمانينات القرن العشرين. الا ان ابـــا كاظم قال ان الامر يحتاج الى وقت. حصلنا بمعرفته على مستودع لتصليح الاحذية القديمة.

كـــان المستودع لشخص غريب الاطوار والملبس يدعى اسماعيل زاده يرتدي السواد دائما. صاية سوداء تحتها قميص وسروال مع حذاء عربـــي من النوع الذي نشاهده في المسلسلات التاريخية. لحيته صغيرته نهايتها مدببة ولايرتدي العمامة بل لاحظنا انه يضيق برؤية رجل معمم ويتشائم اذا ما بتدى يومه برؤية احدهم.

حيـــنما شـــاهد ((اسماعـــيل زاده)) حميد يدرسني كتاب خزانة الادب، او بالاحـــرى ما تبقى منه حيث تلفت اجزاء اضافية منه بفعل ليلة هروبنا من سجن بندر عباس. اقترب منا ثم قال لنا:

– انتم لستم مثلهم

رمـــق احـــدنا الاخر انا وحميد، لم نفهم شيئا. ومنذ ذلك اليوم اوضـــح لنا اسماعيل زاده وجهه الاخر. كان رجلا مثقفا عاشقا للعربية لديـــه مكتـــبة ضـــخمة يقول انه ورثها هي ومهنة الاحذية من ابيه!.

فاسماعيل يعتقد انه من عائلة عراقية علمية هربت من بطش الخليفة، وهاهم الاحفاد ينكل بهم بطش الائمة. هكذا بات لنا موقع مميز ومختلف عن بقية الشبان الذين يعتني بهم اسماعيل زاده. فالمخزن الكبير كان مخزن للاحذية في جانبه الاكبر، وقسمه الاخر مقسم الى قواطع صغيرة يسكنها شبان مشردون. خصوصا أولئك الذين تيتموا حيث تم إعدام او اعتقال ذويهم لكونهم من المنتمين لحركة المعارضة الاهوازية واحزابها الداعية لتطبيق الديمقراطية او الاعتراف بالاهواز دولة عربية ذات سيادة مستقلة. ابناء هذه العوائل لامأوى لهم ولامعونة بخلاف العوائل الاخرى التي يكون لهم رواتب حكومية ومنح من الحوزة ومكاتب رجال الدين. اسماعيل زاده كان يدير حشود كبيرة بصمت وبتنظيم يخرجه عن ان يكون مسؤلا حقيقياً. فهو فاعل خير لا اكثر.

في احد الايام لاحظ حميد وهو يبيع الاحذية ان رجلا معه زوجته منقبة يتحرش بها بعض الشبان فاستشاط غضباً ودخل بعراك عنيف لم اكن متواجدا اذ كنت ذهبت لاحضار وجبة الفطور والتي هي عبارة عن صمونة وفلافل نتناولها في الساعة التاسعة كل يوم. لما رأيت الشجار كان قد انفض بفعل تدخل بعض الناس. بقي الرجل يتشكر من حميد واعطاه عنوانه وانه معزوم لديه على وجبة العشاء هذه الليلة. كانت تلك حادثة افتراق حميد عني حيث انه بات يذهب كثيرا لهذا الرجل وفي كل مرة يبقى حميد وقتا طويلا من النادر الا اكون قد نمت فيه حينما يعود. في تلك الايام زاد حزني وشعرت بمرارة وداهمتني صور الاحزان عن مصير اهلي المفجع وضياع عمري في دوامة المجهول، وصراخ قلبي يتضاعف حيث اسم وردة يشق صدري. هل وردة لازالت تجادل امها كل يوم حينما يشتعل التنور في الصباح؟! ماذا اقول لها حينما تسئلني عن قوجانس؟!

بـــات اســـم وردة هو الحبل الاخير الذي يشدني للحياة والواقع ويحمـــيني مـــن الانتحار والجنون. بات اسمها مغامرة، حفلة او عاصفة غجـــرية. آه لـــو كان هناك ثمة رسائل مابيننا.. مجرد رسالة ياوردة. الانـــسان بدون حبيب جزيرة مهجورة او قارة مطفأة. الانسان بدون حبيب انسان منفي. اني محتاج اليكِ ياوردة محتاج اليكِ.

اخذت الاحظ ان حميد بات يربـــي ذقنه ويتحدث بطريقة هادئة خـــشوعة. لم افطـــن الى عمـــق الامر الا بعد ان اخبرني اسماعيل زاده وبنبرته الهادئة المثلجة:

صـــديقك حميد عبر الى الضفة الاخرى، فابو سعود الذي غسل دماغه هو من دعاة العقيدة الصحراوية، السريين في ايران.

– معقول!!.. لا.. مستحيل عمي ابو كاظم حميد مهما ابتعد فان روح النخيل سوف تعيده الى شاطئ اهله وهويته حيث جرحه الابدي الذي لن يشفى.

انت لا تعرف ان حميد لديه اخ قتيل يؤذن بخلايا جسده كل يوم فيمنعه من السبات او الانسلاخ.

ضحك اسماعيل زاده:

– ومـــاذا تظـــن ياولدي... الدنيا باجمعها باطن وظاهر حتى الحجر.

– هل ابو سعود رجل خطر؟!

تنهد اسماعيل زاده ثم رفع رأسه الى السماء، فبدى لي انه قد ازداد طولاً:

– ليس من شيء معين نسميه خطر فالسلام حقيقة لاوجود لها، الامن فكرة بشرية.. نوع من الترضيات الذهنية لاغير، توفرها لنا اللغة باعتبارها الحيلة الكبرى للانسان.

– هـــل انت تحدثني ام تحدث شيء آخر؟!. قلت ذلك بنوع من الحدة اذ لم افهم شيئا حقاً.

كيف وهل يستطيع احد ان يحكي الحكاية.. ان يسردها كما وقعت بعيدا عن كتبة البلاط فهناك ما بعد البحر حيث تقع صحراء العـــرب الاولى، اســـتولى اصدقاء الانكليز على الرمل فالغوا الزمن وتحـــولت الدنـــيا الى تحـــركات تلال رملية، وارتفعت مدن الملح العجيبة.

هـــناك تم فـــرض ضريبة مالية على الشيعة اسموها ضريبة الجهاد، لكـــون الحكـــومة لاتريد احدا من هذه الطائفة ان تشارك في الجيش. فالحـــق مرتبط بالماء والظلم معقل الملح والنار. منذ الازل تتصار مدن الماء مع مدن الملح حيث البداوة والحضارة، الزراعة وعصابات الغنيمة، بين الارض الطيبة والارض الصبخة.

في تلك الصحراء تم هدم معالم اثرية اسلامية لا لشيء الا لكونها مـــرتبطة بتراث المعارضة والرافضين، بينما لم يجرئ احد على لمس آثار الـــيهود. فالملوك يعرفون ان لاهمية بين الكفر والايمان الا بتفرقة الاسماء لاغير.

كانـــت تلك الضريبة تسمى بـــ ((الروسية)) اي انها مفروضة على كل رأس في العائلة حتى لو كان انثى او طفل رضيع.. الضريبة كانت اقسى من الجزية على النصارى واليهود، ضريبة الجهاد هناك حـــيلة تخفـــيف لغوي للجزية.. آااخ.. ماذا يمكن ان يقال هنا بعد وجع كل تلك السنين وكيف يستطيع الحرف ان يقوى على شرح بطانـــة الشر: الجزية حكم فقهي قديم يتم تطبيقه على الرجل البالغ الذكر فلايشمل الصبيان ولا النساء، بينما سادة الرمل وزعماء مدن الملح هناك استنـــزفوا الجميع كنوع من التدمير المالي والنفسي، فقد

كانت ضريبة الجهاد تؤخذ من الناس هناك اكثر من مرة والذي يسمى بـ ((المطبوق)) اي المضاعف، فكان جلاوزة الملك يضاعفون المبلغ ويأخذونه اكثر من مرة في السنة فاظطر الناس الى بيع اولادهم في سوق النخاسة. هكذا دخل الكثير الى المعتقلات وحاول البعض الفرار.. لقد ادخل المئات من المساكين السجون لانهم لم يستطيعوا دفع ضريبة الجهاد واستحدثت عشرات المعتقلات، كانت عبارة عن قصور قديمة وخرائب متهالكة، لتستوعب الاعداد الجديدة من المعتقلين.. واضطرت النساء لبيع حليهن من أجل تسديد الضريبة واخراج ازواجهن من السجون، بل وباع الكثيرون اثاثهم وأراضيهم وحيواناتهم وحتى قدورهم وملابسهم الداخلية. لم يتبقى من خيار للبعض سوى الانتحار فبقي اطفاله للمتلاعبين بالعقول اصحاب الشماغات الحمر والثياب القصيرة، هكذا لم يعرف ابو سعود ان الذين اعتنوا به هم ذاتهم من حولوا قبيلته الى عبيد وأودوا بابيه الى الانتحار وامه الى الجنون. كبر ابو سعود وترعرع في حديقة نباتات الشر، تنسم روائحها وكبر على روث سماد قوتها، لكن شيء ما كان داخله يجعله لايستريح فهو يعاني من رائحة نفاذة كريهة فهناك أينما ذهب رائحة دم متفعن لجثة قديمة، ويشتم في الناس رائحة حيوان مفترس، تمنى ان يعرف ماهو سبب هذه المصيبة لديه لكن لم يستطع فقد راجع ما لاحصر له من الاطباء واستخدم كافة الوصفات الشعبية. قرر اخيراً ان يسافر، تنقل كثيراً بيد ان الرائحة المتعفنة كانت تطارده وتصل قبله وتكون أول المستقبلين له في مطارات الدول الجديدة. لكن ما ان حط قدمه على ارض الاهواز حتى وقع سيراً لهدهدة سعف النخيل، شيء ما ثبت قلبه هنا فعرف انه ان عاد الى مدن الملح فإنه سوف يعيش بلا قلب، قرر المكوث

في هـــذه الارض رغم كراهيته لعقيدة الناس هنا وطقوسهم الغريبة، ولهجتهم التي لاتروق له كثيرا. لم ينتبه الا بعد فترة طويلة انه لم يعد يشم تلك الرائحة الزنخة في الكون والناس.

اخـــذت الكآبـــة تغتالني، انا الان وحيد اتوسد بطانية قديمة بين كـــومة من الاحذية التي تخنق رأئحتها الزنخة أنفاسي. اشعر اني انام في مـــستنقع للتماسيح. اسمع انفاسها واحس بترقب عيونها. اسمع غضب الفقراء الحفاة وغضب الحيوانات على جلودها المهدورة باقدام المترفين. رغـــم عملنا الطويل في الاحذية ودمائة خلق اسماعيل زاده الا انه بقي بخـــيلا لم يمنحنا ولو حذاءً ممزقاً لنرتديه كي لايتأملنا الناس باستغراب فيطلقون عليّ: بائع الاحذية الحافي.

هاهو الشتاء يلم لحافه شيئاً فشيئا لم اعد ارتعش من البرد رغم اني لا اعرف النوم الا متستراً، نسيت كيف كنتُ انام في همّت، في ذلك العراء المطلقا!

الفـــصول تـــتغير والاصدقاء يتقلبون، والقلب ثابت كما الارض يـــتأمل تغـــير الاشياء بوجوم ابكم. لا زلتِ في القلب يا روده ذكراكِ تـــشعل بـــــي طاقـــة الحياة وتوقظ بـــي رغبة المقاومة. اشعر بيدكِ الطـــريتين واحـــس بعيونكِ الواسعة وضحكتكِ البريئة. اني احاول في بعض الاحيان نسيانكِ كي اوقف مهزلة الوجود هذه واقول لنفسي ان الحـــب نـــوع من الاستبداد، لكن بمجرد ان تمر عيناكِ بخاطري تورق الروح وتنقشع سحب الوساوس ويندحر إعصار التعب.

كان ابو كاظم يستغرب كلما اتى التغيرات التي تترى على حميد وحمـــيد لايجيب على اندهاش ابو كاظم بشيء. اخبرنا ابو كاظم بان بعـــثة هولندية اتت الى همّت لكن اصحاب الخيمة السوداء ابو صباح وابو هدى وابو مريم ومعهم ازلام افليح، منعوا الناس ان تعطي اسمائها،

بكون هذه البعثة تريد اخذ الناس الى دول الكفر والفساد، والان توجد معـــركة في همّـــت بـــين الشيخ صالح وبين افليح. الغريب ان الجنود الايـــرانيون تدخلـــوا لاول مـــرة وقالوا ان لديهم امر بمنع الناس من التحدث مع الوفد الهولندي، فهذا يسيء الى سمعة الجمهورية الاسلامية، لكن صفعة دوّت في سماء الاهوار هناك. لم يحسب احد ان تكون كف وردة ثقـــيلة وقاســـية الى ذلك الحد، انذهل الضابط الايراني من شدة الـــصفعة فاراد الانقضاض على وردة عندها تدخل الشيخ صالح ومعه مجمـــوعة مـــن الـــشبان والرجال.. اندفع جنود ايرانيون للدفاع عن مسؤلهم، اشتعلت المعركة اكتشف الشيخ صالح والناس قوة وردة، قوة جمـــال تلك العيون كيف انها تحولت الى طير محلق.. طير مشتعل. فقد تـــآزرت الـــسواعد وباتـــت يداً واحداً، عرفوا ان القضية ليست دين ولاعقـــيدة ولا بطـــيخ.. هاهو مسؤول كبير يحمل علامة انه موظف مـــرموق في الدولة الاسلامية وهو يعتدي على فتاة صغيرة امام الجميع ولا يـــبالي بشيء، وعيون رجاله تأكل تفاصيل الجسد الخلاب محاولة حـــرق الثـــياب الساترة.. حتى الخنازير تثور فيها الغيرة ان رأت احدٌ يعتدي على تلك العيون.

المـــسؤولين الايرانيون خائفون الان من توسع هذه الظاهرة اذ لم تـــنفع ارسال فتاوى مراجع وفقهاء ولا رجال دين يخطبون على المنـــبر بـــان عليهم احترام جنود الجمهورية الاسلامية فالجمهورية صنعها الفقيه وهو نائب المهدي والجندي موظف في دولة الفقيه اذن هـــو جـــندي دولة المهدي والامام ايضاً.. لقد بصق المعدان بوجه مكبرات الصوت المحمولة: شنو الامام سلام الله عليه يسجم سنوان ويـــشغل ناس تتحرش بالاعراض؟!. وردة كانت تقف وتبين للناس تناقضات الاقوال. لا شك ان هنالك تحرك لتوزيع الناس على اكثر

مـــن معـــسكر ومخيم لجوء وفي مدن مختلفة كي يزول ما تعلموه في همّت.

انـــشرح صدري رغم قلقي. لقد كبرت وردة حقاً وتحولت الى ثورة.

قلـــت لحميد اني بحاجة ان اتكلم مع ابو كاظم فتركت مكاني في بـــيع الاحذية واخذت اتمشى مع ابو كاظم. سئلته برجاء لماذا لم يهتم للمعلومات التي اخبرته بها عن افليح وعساف وقصة مجيء ماجدة الحلوة مع بناتها؟!

تسمر ابو كاظم في مكانه ودقق في الارض تحته كأنه يحفر بعينيه بئراً يحتوي حتى لو على قطرة واحدة من ماء الحقيقة:

– اسمـــع لـــؤي، افليح متورط بامور كثيرة والتي اهمها تهريب الـــسلاح والخمر والمخدرات ونقل المعلومات. لكنه وعساف عرفوا نقطـــة ضـــعف كل مسؤول. هذا العدد الكبير النادر نفسه للموت يحـــتاج في لـــيال الـــبرد الى امرأة. عزلة المقاتل الطويلة في الاهوار تفجـــر شهوة المعانقة. وافليح لايعبر الحدود الا ومعه فتيات جدد. هـــو رجـــل معـــروف لـــدى ضباط السجن الذي كنتم فيه اعني زنـــدان بندر امام. ولو اني انصدمت به فاني سوف اضيع مقابل لا شيء.

تأملني ابو كاظم ثم اضاف وهو يطبطب على كتفي:

– تريد الحق بمجاهد وتغريه فحبة لا يستحق ان يكون بيننا هو من اراد التنعم بليونة الحية فليعرف حرقة سمّها.

ولما وجدني قد سقطت بين يديه وهزتني عاصفة المعلومات:

– كنت تعرف كل شيء اذن؟!!

قال ابو كاظم:

- واكثر، اتراني لا ادري ان صاحبك حميد بات الان من جماعة ابو سعود؟!

وقبل ان اجيب اردف:

- الجميع يعرف ابو سعود لكن لماذا لاتعتقله الشرطة؟! سوف تسأل هكذا. سأقول لك انه أفليح آخر. لكن بدل النساء هنا المال.

ثم ان الرجل لديه قدرة عجيبة على احتواء الاخرين والظهور باكثر من مظهر. ابو سعود يدعم المعارضة الاهوزاية العربية. وداعية سري لعقيدة صحراوية فظة مرتبطة بمدن الملح. وهو ايضا صديق مقرب من امام جمعة الاهواز المتشدد في ولائه للدولة والمذهب!

- اذن لماذا لاتقول لأحد ما كل هذه الامور، قلتها وانا اصرخ.

تنهد ابو كاظم:

- الناس لاتحب الذي يكشف الاوهام، صدقني ان فعلت ذلك سوف يعاملك المجتمع كطاغية وتصاب بلعنة قد تصل الى احفاد احفادك.

لم استطع تحمل كل ذلك فجلست منهاراً واخذت ابكي:

- ارجوك خذني الى الاهوار او ارجعني الى همّت.

جلس ابو كاظم بقربي واخذ يهدأ من روعي:

- اعدك لو عدت سالماً، فانت تعرف اننا لعبة بين اصبعي القدر. على اية حال لدي عدة مشاغل سوف يطول بقائي في الاهواز هذه المرة.

ثم تغيرت نبرة ابو كاظم الى نبرة هادئة وحنونة:

– لازلـــت في أول شبابك حاول ان تكون اقوى فالناجح في الحـــياة هو الذي يستطيع تغيير مواقعه كلما تبدلت الامور، لاتكن مثل المعدان في الهور، ابداً. اسمعني فانا من جيل لديه خبرة طويلة في الفشل.

مسحت دموعي ورفعت رأسي:

– لدي رجاء اخير

– ماهو؟!

– ساعد قوجانس فهو مسكين... ارجوك

صمت ابو كاظم وطال صمته:

– لا اريد ان اكذب عليك، لكن يقولون ان قضية قوجانس محالة الى سلطات عليا. وانا مستغرب جدا فقد كلمت مدير سجن بندر امام مـــن كـــون قوجانس شبه مجنون، لكنه اجابني بقسوة بان هذا الموضع يجب ان ابتعد عنه.

– هـــل يعقـــل ان يكـــون ابـــو سعود وافليح وعساف، احرار وقوجانس في القيود؟!

– الـــسياسة فـــوق العقل هنا وفي كل مكان، اهتم بنفسك والا ستكون سجان نفسك. ثم انك لاتعرف الذي حصل بعد رحيلكم من الـــسجن. لقـــد تحول المغتسل الى مزار وهناك من يبيع صور مرسومة لقوجانس باعتباره احد الاولياء المقربين.

– معقول

– واكثر. والدولة لاتريد ان يكون شخص ما محبوباً وهو لاينتمي اليها ولو كان مجنوناً.

عدتُ الى بيع الاحذية منكسر الحال مضطرب الذهن كمن انقلب كابوسه الى واقع.

في الليل تمسكت بحميد وتوسلت به ان يجلس معي كي نتحدث ومن باب الطرق على باب القلب وذكرى العيش المشترك:

– منذ زمن يارجل لم نقرأ كتاب خزانة الادب

لكن حميد قابل ابتسامتي وعرضي بجمود:

– تلك علوم لانفع فيها

– اي علم هو النافع اذن

– مافيه صلاح الامة

– اي امة؟!

انتفض حميد وقال بحدة:

– الاسلامية طبعاً.

ولما وجدني ساكتاً. قال مخففا من حدته:

– الفـــرد بلا امة وهم ولا امة بلا تاريخ والتاريخ لابد ان يكون فاضـــلاً والا كان تركة جثث متعفنة. تعلمت من ابـــي سعود الاحساس بالبطولة وهي لا تكون عبر الارتباط القلبـــي بتراث المجاهدين الموحدين. انظـــر الى كـــل ما حولك لا تجد سوى قبوراً او اناس يقدسون قبوراً. يارجل لابد من تصحيح عقائد الناس كي نكون اصحاب حضارة قوية مثلما كنا ايام زمان. وبهذه الطريقة ننسى احزاننا الشخصية.

لاتـــصدق انظـــر اليّ، سنوات وانا لا استطيع نسيان مقتل اخي بدون ان اقدم لنفسي او للاخرين شيئاً.

– لكـــنك انت ايضا تربط بطولتك باصحاب قبور. قلتُ لحميد مقاطعاً

– اترك عنك هذا التفلسف، اسماعيل زاده رجل مؤول، يجب ان تحـــذر منه. وكل ماتعلمته في الخيمة الزرقاء هراء.. خرابيط واحاديث غلو واكاذيب.

– وابـو سـعود رجـل قشري خطر. لو اعتمدنا على الطريقة الظاهرية كان معناه ان يحمل كل منا لافتة عن نواياه كي لايغتاله الاخر طلباً للثواب.

لما وجدت الحديث يتقاطع ولايصل قلت لحميد:

– اسـتحلفك باخـيك ظافـر ياحميد استيقظ من هذه الهلوسة النارية. نحن في خطر مشترك واخوة، واسماعيل زاده وابو سعود كلاهما غـرباء عنا. هناك امر مرتبط بقواجنس لابد ان نهيء انفسنا له. يارجل لـيس لي غـيرك في هذا البلد استيقظ من سكرة النصوص ارجوك.. ارجوك.

ولمـا اسـتغرب حميد الكلام قصيت عليه كل ما حدثني به ابو كاظم.

صفق حميد يديه ونهض قائماً:

– مـن صدق هذا المخبل مصيبة.. هو مبتلي بنفسه وبالي الناس وياه.

الـشمس لاتبالي بمن ينام حتى الظهيرة. ايام قليلة ويأتي ابو كاظم ومعه مالم يكن بالحسبان. كان الوقت منتصف الليل والهواء بارد لكنه محمـول من قبل الاجساد. سمعنا قرعاً على باب المخزن الذي ننام فيه. كـان ابـو كاظم ومعه ذات السيارة التي هربنا بها من السجن. لكنها كانـت محملـة هذه المرة بجسد قوجانس، نعم كان ميتاً. شلنا الحدث وتـوقفت الـدماء. اخذ حميد يتراعش. قال لنا ابو كاظم بصوت آمر رغم مرارة الحزن الواضحة:

– يجـب تغـسيله ودفن بسرعة. يجب ان نحمد الله انهم اخبرونا بمقـتله واعطونا جثمانه. وهنا اصريت على فكرة مجنونة وهي ضرورة تغسيل قوجانس بذات المكان الذي اخذوه منه.

هكذا صعدنا الى السيارة وذهبنا الى ذات المغتسل الذي كنا ننام فيه وجدنا المكان مطلي بالحناء وقطع القماش الخضراء وقطع قماش سوداء معلقة على جميع حيطانه.

مددنا قوجانس، كان جسده مزرّق بخطوط السياط وأليتيه مليئتان بلطخ الدم وشَعر راسه محروق. لم يكن في جسده غير مكان وحد سليم كان يلمع كسوار هو ذلك الجزء من العضد الذي كان يحمل تلك التعويذة. احتظنته وبكيت، ربت عليّ ابو كاظم وقال لي انه لابد ان نسرع بتغسيله فلقد شددوا عليه ان لايعرف احد بخبر موت قوجانس فهو قد بات مقدسا لدى الناس وموته بهذه الطريقة مضر بسمعة الجمهورية الاسلامية ونظامها.

اخذت اغسله ويداي ترتعشان وعيناي لاتتوقفان عن الدموع وكدت اصرخ وأتشظى من شدة الانفجار الذي بداخلي لما رأيت عضو قوجانس مبتوراً. لم يكن معنا كفن سوى بطانية قديمة.

كان ابو كاظم يعرف اي مقبرة هي المقصودة فمعنا رجل غريب يحملق بعنيه ولا يقول شيئاً. سارت بنا السيارة كثيراً الى وصلنا الى مقبرة دخلنا فيها حتى بتنا بعيدين عن القبور، وهكذا دفنا قوجانس وحيدا في مقبرة لم تحمل حتى اسمه او اشارة تدل عليه. فالرقيب الايراني الذي كان معنا أصر ان يكون قبر قوجانس في باحة موحشة لانه كما هو واضح ان قوجانس ليس مسلماً وبالتالي لايجوز دفنه في مقابر المسلمين، الدليل طبعاً هو ذَكر قوجانس الذي لم يكن مختوناً. مع ان الكثير من ابناء الارياف لايختنون الا بعد سنين وقد يكونوا متزوجين ولديهم اطفال ومع ذلك هم مسلمون، هل الدين معلق بغطاء على الرأس وقطعة جلد تحت اللباس؟!

ورطة هي الاديان عزلة في الموت وحرب في الحياة. وبقيت حائرا اذا كان هولاء يعتقدون ان قوجانس ليس مسلماً فلماذا رضوا ان نقوم بتغسيله، بأي طريقة يفكر جند الامام هولاء؟!

في طريق العودة قال لنا ابو كاظم:

- افضل لو تغادروا ايران بالمرة

- اين نذهب ونحن لامال معنا ولا دليل؟!، اجاب حميد

- كـــل واحـــد منكم لديه علاقة مع شخص صاحب علاقات، اسماعـــيل زاده وابو سعود، اطلبا المساعدة منهما، وانا افضل ان ترحلوا الى دولـــة غربية. فلعل حظكم يكون افضل. انتم بصراحة تنتقلون من مشكلة الى مشكلة مثل الخيول التي لاتعرف المدينة.

قلت لابـــي كاظم اني سوف اعود الى الاهوار. ففلتت منه قهقة بسيطة، كانت اشبه بصوت حيوان مجروح:

- عـــن اي هور او خيال تتحدث، أفليح لن يتركك. حاول ان تتدبر امرك.

لما عاد حميد من ابـــي سعود في اليوم التالي كان يرتعش فقد طرده ابو ســـعود وقال له ان الرحيل الى دولة غربية معناه الخيانة والوقوع في المعصية. لكـــن هذا الامر ليس هو الذي كسر الجرة بينهما. فحينما خرج حميد من منـــــزل ابـــو سعود خرج هذا الاخير ورائه غاضباً فصعد سيارته الفارهة وبـــرعونة ادار الـــسيارة في الـــشارع الصغير وهنا انصدمت سيارته بسيارة اخرى بائسة كانت واقفة، صدمة بسيطة، فخرج رجل من المنـــزل، ترجل ابو سعود من سيارته وهو يشتم ويصرخ على ذلك الرجل. بقي صوته يهدر ولحيته الطويلة تهتز ولما تعب من الصراخ اجابه الرجل الاخر:

تعـــرف يابوسعود انك المخطئ، لكني اردت ان اقول لك لاتهتم فنحن جيران.

قـــال الرجل كلمته وذهب وترك الارض وما عليها اشارة توبيخ وندم لأبـــي سعود.

كان حميد بعد لم يبتعد كثيرا فرأى كل شيء.

انـــا كنت ابكي في المخزن و لم اذهب للعمل. تذكرت قوجانس كـــيف كـــان براءة تمشي على تراب همّت. وعلاقته بوردة والزايرة ناظمية والشيخ صالح. هذا الرجل المسكين اي ذنب اقترفه كي يتم قتله بهـــذا الشكل. اخذني الحزن لتقليب اشيائي فكرت ان ارحل عن ايران ولـــو مـــشياً او ســـباحة، لكن كيف ووردة جزء من كياني وروحي ومشاعري، هل يعقل ان اتركها هكذا؟!

في غمرت انشغالي بصراعي النفسي بين الرحيل والالتحاق ببوردة سقطت ملفوفة مخاطة بقطعة قماش صغيرة. كانت تعويذة قوجانس التي اخـــذتها مـــنه في السجن. كنت سارح الذهن وجدت نفسي افتحها كانـــت الورقة شبه بالية ذهب الكثير من كتابتها. استغربت نوع اللغة المكتوبة فلم يسبق ان شاهدت لغة مثلها.

انقطـــع ذهولي وذهبت الى اسماعيل زاده و لم انتبه الى ان الوقت كـــان وقت الغروب، لقد بقيت اكثر من اربع وعشرين ساعة داخل المخزن ولا اعرف اين ذهب حميد؟!

لما طالع اسماعيل زاده الورقة لمسها برفق وقال:

– اظـــنها لغة السريان او الاشوريين المسيحيين لقد شاهدتها عند بعض الاصدقاء. دع الامور الى الغد وسوف نذهب الى صديق مسيحي هو عراقي ايضاً وهو من قدماء صاغة الذهب هنا.

حيـــنما عدت وجدت حميد قد احضر كباباً انفجر جوعي ما ان شممـــت رائحته. ولما سئلته عن هذا الطعام الفاخر قال ان اسماعيل زاده اعطاه المال كنوع من المواساة لموت قوجانس.

لم تصل الشمس الى الظهيرة حتى عاد اسماعيل زاده والاضطراب واضح على قسماته وحركاته. اخرج ورقة من صايته الطويلة السوداء الشبيهة بمعطف وقال هذا ما ترجمه الصديق الاشوري وهو يقول انه اضاف بعض العبارات والجمل لكون ورقة التعويذة ممزقة رغمي اني استغرب اي نوع ورق وحبر تم استخدامه فبقي محافضاً على نفسه كل هذه المدة؟!. علينا ان نقرأ كل شيء ثم ننساه فقد استحلفني صديقي الاشوري بان لا اطلع احد غيركما على الامر فهو شأن يخص طائفته. لقد تركت المسكين يبكي واعتقد انه ترك العمل وذهب الى المنزل من فرط التأثر:

في عام 1915 وصل لهيب الحرب العالمية الاولى الى المنطقة فزداد وضع المسيحين في الشرق التباساً وسوءا وذلك بسبب تزايد الهجمات عليهم التي كانت ضراوتها تزداد من قبل القوات التركية وبعض العشائر التركية التي تحالفت معهم. فظطر الاشوريون بزعامة البرطريك مار شمعون بنيامين، ان يختاروا اهون الشرين بين الموت والفناء او الحرب ومصائبها، فنضم مسيحيوا الشرق الى قوات الحفاء ضد العثمانيين قائلين لانفسهم بان الانكليز مسيحيين مثلنا في نهاية المطاف وان كان العثمانيين المسلمين في بداية ارضنا. لكن الامر سهلا فقلة العدد وخطأ القراءة لايقل عن سوء عمليات النهب والسلب التي يتعرضون اليها وفي آذار عام 1918 سوف يتم اغتيال البرطيرك مار شمعون بنيامين، على يد اسماعيل آغا زعيم قبائل الشيكاك الكردية، فأتت فترت الشتات الكبير والابدي للاشوريين.

آه ياولدي العزيز لو كان تشرد الاشوريين والكدانيين والسريانيين يمكن تصورها، فانه مافاق تصور مأساته هو تشرد المسيحين الحكاريين، فهولاء كانوا قد شاركوا فعليا في عمليات

القتال مع قوات التحالف ضد القوات العثمانية، فقد تم نزع عاصمتهم قوجانس كافجع مأساة في حياتهم افقدتهم الامتياز الروحي الكنيسي والتحصن المادي، هكذا تم تهجير المسيحيين الى المناطق الوسطى والجنوبية من بلاد العراق ولم يستطيعوا ان يعودوا الى مواطنهم الاصلية داخل تركيا القديمة، حيث قام الانكليز برسم خارطة جديدة لتركيا فبات بينهم وبين اوطانهم حدود مرتسمة دولياً خصوصا بعد اتفاقية بروكسل عام 1924، وبائت جميع مطالبات المسيحيين بالعودة الى حكاري، بالفشل حيث ادانت الحكومة التركية الجديدة هولاء المسيحيين بانهم خونة. هكذا اتمزج هولاء المسيحيين مع فئة الاشوريين العراقيين واخذوا يشملون انفسهم باحلام انهم ورثة الاشوريين القدماء في العراق الا ان هذا نمى دغدغة ابعاث اسطورة دولة آشور الكبرى على قرار كردستان الكبرى، والتي قصتها قصت حكاري حيث اندمج عدد من الاكراد مع اكراد العراق وباتوا يوسعون احلام اليقظة بان هذه هي ارضهم منذ آلاف السنين.

لكن اذا كانت الغطرسة الكوردية اوصلتهم الى مذبحة الانفال على يد حزب البعث والانانية العربية، فان الاوهام الاشورية وصلت في عام 1933 الى مذبحة سميل على يد الاكراد. حيث ارسل رئيس الوزراء، رشيد عالي الكيلاني وحدات من الجيش بقيادة العميد بكر صدقي، كانوا جنودا وكنا مدنيين وقرى، كانوا السلاح وكنا الطين، قتلونا فاسموهم ابطالا، وقتلونا وصرنا الحقيقة.

في السياسة ياولدي الامر متروك للقدر اكثر من القراءة الصحيحة والعقل المحنك.. والقدر خسيس بطبعه دوماً، ارجوك تذكر ذلك دائما ياولدي.

كـــنت اعتمد على مد الجسور مع علي صالح السعدي، احد ابـــرز قـــادة حـــزب العفالقة والذي كانت له مشاركة مشهودة في الانقـــلاب ضـــد عبدالكريم قاسم. وكذلك بالتقرب الناجح الذي حققـــته مع صلاح عمر العلي والذي كان عضو مجلس قيادة الثورة ووزير ايضاً، لكن الثاني جرد من منصبه وهرب خارج العراق، بينما الـــثاني تم تصفيته فكلاهما كانت له انتقادات صريحة لم يرصدا فيهما القدر، كانا يجلسان في نادي المنصور، وينتقدان بطلاقة وثقة. هكذا صرت عميلا بعثيا منشقا بنظر قيادة حسن البكر وصدام حسين وانا الذي لم ارتبط بالبعث يوما، على العكس حاولت ذلك ولم انجح كي اعـــزز موقـــع قوة للحركة الاشورية التي كنت احلم بها كحلم ملا مـــصطفى بكردستان، فقلت لنفسي اذا كان ملا مصطفى تعامل مع اســـرائيل فلـــم لا اتعامل انا مع بعض قيادات حزب العفالقة. لكني كـــنت ســـاذجاً فمن يستطيع دغدغة العقرب؟!. انكشفت بسهولة فـــتمت مطاردتي، تصور كنت اسير ليلا ونهاراً. كانت امك حاملا بـــك. وانـــا لا اسطيع العبور بها الى صحراء السعودية، لذا سوف اتـــركك وامـــك بيد اقارب المهرب الذي سوف يأخذني، لا تنس ياقـــوجانس ارضك ولا هويتك. يقول المهرب بانك سوف تعيش في الاهـــوار وهـــذه هـــي الارض المقدسة ياقوجانس التي ذكرها ابونا الـــرب، فلتكن الاهوار ثورتك ولنا اقارب في الاهواز اذهب اليهم فالاهواز ثورة مؤجلة.

بقيـــنا مشدوهين، لهذه الحكاية العجائبية. لما اعدت ما اعرفه عن قوجانس، على اسماعيل زاده قال:

لقـــد كـــان كبار السن في الاهواز يتحدثون عن ذلك الاشوري الـــذي حول الاهوار الى قاعة تمرد. يبدو ان والد قوجانس قد عاد الى

الاهواز وترك هذه الورقة كذكرى او انها تحمل اكثر من ذلك وصديقنا المسيحي لم يترجمها كاملا. فحرس الثورة يقولون بان هنالك رجل طاف على البلدان كي يعينوه على بناء دولة لقبيلته الضائعة، كبر وعمّر ونسي ان لديه ابن وزوجة. ولما دنى منه الموت خاف ان يعود الى رحم الارض، فتعهد ان يتخلى عن الايمان بالكنيسة وعن قومه حملة الصليب ان اعاده اليه الشيطان شبابه. وبالفعل وجد نفسه شاباً وتحول الى اكبر صاحب شبكة دعارة في العالم وصاحب متجر سلاح دولي، ثم تعب ومل من الحياة وبات كل شيء بلا معنى فعاد تائبا فرحل الى الاهوار كي يجد ابنه وزوجته ويجدد الثورة ويعلن التوبة، لكنه مات في الطريق.

تنهد اسماعيل زاده وقال وهو يصطنع الابتسامة: هي حكاية على اية حال قد يكون المراد منها شفرة مضمرة تصل عن طريق الاشاعات وتناقل الناس الى الاشخاص المعنيين بها وهم الذين يفهمون المقصود منها. وكم من خرافة كانت رسائل انقلاب وكم من اشاعة عجيبة باتت دولة كاملة وحدها من يحتكر الخبر اليقين.

التاريخ ياشباب كهف مقفل لايفتحه الا اصحاب السلطة او المغامرون. ثم علينا ان لاننسا الامر المعروف بان الشيوعية في العراق تأسست على يد المسيحيين، وهولاء الشيوعيون سوف يحدثون ثورة ويتخذون من الاهوار مقراً لهم، وبعضهم ذهب الى اثيوبيا وقد يكون والد قوجانس لديه علاقات مع سمر البشرة هولاء.

لعنت الله على السياسة جنون في جنون.

سكت ثم اضاف:

– على اية حال بات رحيلكم عن ايران ضرورياً. وقد تكون هذه الورقة لعبة مخابراتية او ان قوجانس المسكين وجدها ولفها او امرأة في

الاهوار كانت تخدم قساً هارباً من قمع الاكراد، اخذت منه ورقة على سبيل التبرك ثم لفتها على ذراع الطفل الصغير كي تحميه من العين والجن ولم تدري انها ربطت الطفل بعفريت رهيب من يدري، الا يحتمل ان الرجل صاحب القبعة الغريبة في همّت على حق وان قوجانس مراهق ذهبت بعقله دمية ليس الا؟!

ولما وجدنا اسماعيل زاده صامتين، ابستم وقال:

– لدي اكثر من صديق في بندر عباس هولاء سوف يضعونكم في قعر سفينة اجنبية وبعد ايام تخرجون الى سطح السفينة حينما تكونون في عرض البحر. ثم لازال ابو كاظم موجود لم يذهب بعد الى الاهوار، وهو سوف يكون بريد الاتصال.

وافقنا لكني بقيت مهموما بشأن وردة. بقي حميد يصوّر لي بانه حينما احصل على اللجوء بامكاني ان اعود الى ايران باسم آخر وأخذ وردة معي، فالحب يقتضي ان نعمل لمصلحة من نحب في نهاية المطاف.. وان اجتمع معها العمر كله خير من ان اراه بضعت ايام ونفترق. هكذا بقيت احلام اليقظة تحتلني بالكامل.

اسبوع ونحن ننتظر اشارة من اسماعيل زاده فصديقه في بندر عباس يقول ان هناك سفينة متوجهة الى بريطانيا سوف تقف عند بندر عباس. كانت الخطة تقتضي ان نتسلل الى قعر السفينة كعمال نقل بضائع ثم نرقد في قعر السفينة وهو مكان ضيق جدا ومزعج لكون قاعدته مقعرة كمثلث وهو مظلم ومليء بادخنة المحركات ودوي الماء فنحن سنكون في الجزء الغاطس من السفينة، لذا وكي نرتاح من كل شيء سوف يتم منحنا حبوب مسنوم واقراص فاليوم مخدرة. وقليل من الماء والطعام البسيط بمقدار ماتسمح به جيوبنا فقط كي لانلفت الانظار. هكذا حتم علينا القدر الانتقال من حفرة همت الى حفرة السفنية، ظلمات في ظلمات.

جـــاء اليوم الموعود، ودعّنا اسماعيل زاده، واتى ابو سعود وصافح حميد و لم يتكلم معي ولا مع اسماعيل، فاعطاه حميد نسخة كتاب خزانة الادب وقـــال له فلتبقى ذكرى طيبة. وقبل ان نصعد سيارة ابو كاظم قال لنا بان لديه خبرا غريبا:

– ابشروا ياجماعة ماراح تكونون وحدكم بالسفينة.

ثم ســـكت وهو يبتسم. ولما كادت قلوبنا تخرج من الصدور قال:

– ســـوف يـــذهب معكـــم جـــواد، اي نعم جواد بن عمك، واحسان.

نـــزلت علينا الاسماء مثل الصاعقة. لكن قلبـــي افلت لساني:

– عمي ابو كاظم وعزوزة هماتين ويانا؟!

انكسف وجه ابو كاظم واخذ يفرك براحتيه:

– الدنـــيا عجائـــب يا أبي. لقد انجبت عزوزة طفلا غريباً في قم كان عبارة عن سخل فهو لديه شعر مثل التيس وعيون واذنان غريبتان لاتشبه اعضاء الجسد الادمي. فزعت عزوزة وهربت من عيون الناس. يقـــال انهـــا هربت الى الجبال القريبة من مدينة قم حيث يوجد كهف شـــهير اعـــتكف فـــيه آخـــر الفلاســـفة، محمد الشيرازي، المعروف بـــــ ملاصـــدرا، وهو كهف ((كهك)). وبقربه كهف آخر لصديق المهـــدي الخـــضر الذي يقال انه الشخص الوحيد الذي لايموت وكان أعلم من النبـــي موسى. وهو كهف غريب تروى عنه العجائب. وبعد الفضيحة هرب جواد من ضميره ومن الناس وهاهو معكم الان.

– ومن غيره من افراد همت معنا ايضا؟!، سئل حميد

– معكـــم احسان. الشاب الذي سرق البغاء. يقال انه باعها الى رجـــل خليجي. وانعقدت صداقة متينة بين احسان وهذا الشخص ثم

اتـــضح ان الرجل شاذ، ولكون احسان زبون من صاحب دكان ايراني عجـــوز لديـــه خـــبرة بهذه الامور فقد اكتشف الامر واخبر الشرطة، فحكموا على احسان بالاعدام. لكنه هرب بواسطة امتلاكه الكثير من المال من صديقه العزيز.

باتت سفينة النجاة هي سفنية نوح، من كل جريمة مذنبين!

هكـــذا ســـرنا صوب معراجنا الغاطس، والارض تلتهب باشعة الـــشمس حيث الصيف انتصر، والسماء صافية كصرخة مدوية.. كنا نسير والبحر امامنا والنخل يتخاطف على جنبات الطريق، فيما صورة حسناء الهور تصرخ بها الاوردة والشرايين، فكأن البحر سوف يأخذني صوب اليقظة بينما الحب ينازعني الانتحار.

من بعيد اخذت اتأمل دفيف طير صغير يشبه الفاختة، اشتهيت لو انه كـــان بالامكان الاقتراب منه عل عيونه تتسم بذات العيون.. عيون فتات تحـــوّل الارض الى ثورة والقلب الى حلم، عيون يتعلق بها القلب الى الابد وتغـــدو الـــروح جـــزء من سفونية تلك الارض العجيبة الواقعة على حد الوجـــود والعدم والسياسة والعقيدة والقصيدة والجنون، والاثم والشهادة. كان على الاقدام ان تسرع للالتحاق بالسفينة الراسية فوق شط الامنيات، بينما القلب يتلفت ويحاول الانصات لتلك الثورة البعيدة.. ثورة الوردة.

حـــتى في اشد ازماتي اتذكرها واهيم بعشقها الابدي، على تراب همّـــت، وحتى داخل تلك الحفرة البدائية التعذيب التي حفرها الرجال الحميـــد ورموني معه فيها، ام في البراري ونحن نخرج من همّت مبتعدين حـــيث قوجانس منشغل بالنوم وهذيانات سر غريب اسمه المنقذ وحميد منشغل بكتاب خزانة الادب، ام في سجن بندرامام، والان ونحن ننتقل الى البحر وسفينة المجهول، لا استطيع الا ان اتذكرها ولو كنت اعرف شعر عنترة العبسي لتمثلت به ساعتئذ:

وقــد ذكــرتكِ والــرماح نــواهل
مــني وبــيض الهــند تقطر من دمي
وأود تقبــيل الــسيوف لأنهــا
لمعــت كــبارق ثغــركِ المتبــسمِ

ها نحن نقترب من الماء مرة اخرى، مدننا القديمة، عروق نخيلاتنا الثكلى، وقلوبنا المبتلة بعطش المحبة الذي لايرتوي.

هــا انــا امام لوحة المياه اتأمل صورتي المنعكسة عل الماء يمنحني وجها، وعل الماء يوصل رسالتي، من نفسي الى نفسي. اقتربت السيارة من الشاطئ واخذ بريق الكائن الفضي يغازل الامل المغروس في الروح ويدغــدغ الفضول الكامن في العقل. عند مقترب البحر تذكرت ذاك الكلام القديم في بدء الحكاية:

المــاء بلا لون لكونه كل الالوان، ويحير المعنى عند الماء لكونه جمع المعاني فموطنه الارض وأمه السماء. لم تحدد الجغرافيا الماء يوما لكــنه هــو الــذي يحددها ثم يحولها ويغيرها فتجد طباع الناس قد تغــيرت: تقالــيد واديان، وازياء، وشعر وغناء وتبدلات في بكاء وضــحك النساء.. آآه النساء كم هن عجيبات هن منحت السماء لكنهن طريات متقلبات كما الماء. الماء الذي صنع اول الحضارات: سومر، آشور، اكد، بابل. لكل حضارة طبع امرة حسناء ذات دلال وعناد مختلف.

الماء حولي اتأمله فأجده مثل طبع الانسان. مختلف ومتغير: محيط، بحــر، نهر، شلال، ساقية، مياه مطر ومياه جوف. ظاهر جميل، وعميق مخــيف. طاهــر رقراق، ونجس مختلط. بخيل ومعطاء. الماء هو الصديق وهو العدو. وهو الميناء والملتقى، وهو اللقاء والمفترق.

السيارة تسرع بنا نحو كوة المجهول والمرتقب الغريب.. اخذنا نلمح الكائن المّاع الفضي، جمدت بذهني صورة وردة بخديها المتوردين وقوامها الرشيق وعينها الخضراء البرية الرغبة، سحبت انفاسي بقوة كي يستنشق قلبي عقلي وسرحتُ اتطلع بالماء واشعر اني برزخ بين بحرين: بحر من بساتين فرح اخضر، وبحر من نجوم.

جأئني صوت حميد مثل صوت الخيول التعبى التي لاتعرف المدينة:

هل تعرف ما يقول المُهرّب عن اسم السفينة التي سوف تحملنا، ان اسمها حسناء. لعله يكون فالا حسن.

التفتُ اليه وابتسامة ترتفع على وجهي كشهقة الروح المتقدة فيها نار حطب اخضر: نعم انها حسناء الهور.